

تفسير سورة الإخلاص

تأليف

الإمام : ابن تيمية

أبى العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم

الحرانى الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

تقديم الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجى

صححه وراجعه الشيخ

طه يوسف شاهين

من علماء الأزهر

دار الطباعة المحمدية

بالأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

حياة الإمام ابن تيمية ومذهبه

بقلم الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى

— ١ —

عاش الإمام ابن تيمية تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبد الله الحرانى فى فترة من أشد فترات التاريخ الإسلامى حرجا ، وأكثرها خطرا ، وأعظمها إثارة .

فقبل ميلاده بخمس سنوات سقطت بغداد فى أيدى التتار وصار الشرق العربى كله معرضا لغزوهم وتدميرهم ، وكانت مصر والشام آنذاك قد انتهى حكم الأيوبيين منهما ، وتسلمت أمورهما والحكم فيها دولة جديدة هى دولة المماليك التى وضع القدر بين يديها مصير الشرق العربى والعالم الإسلامى يومئذ .

وتقدم هولاكو التترى من بغداد - بعد أن سقطت بين يديه - إلى الشام فاستولى عليها ، وواصل سيره إلى مصر ، وفى أرض فلسطين ، وفى معركة عين جالوت قاتله قطز ملك المماليك وسلطانهم قتال الأبطال ، وفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ ﻫ — ١٢٦٠م كان النصر حليف سلطان المماليك ، وسحق الغزاة المدمرون ، وعاد قطز من المعركة والعالم الإسلامى كله يهتف باسمه وأكاليل المجد والحمد تطوق عنقه ، إلا إن بيبرس قائده

اغتاله فى الطريق وتولى عرش مصر بعده عام ٦٥٨ هـ ، حتى عام ٦٧٦ هـ وقد أحيا الخلافة العباسية من جديد وجعل مقرها فى ديار مصر .

وفى أوائل حكم بيبرس ولد الإمام ابن تيمية عام ٦٦١ هـ ، وعاش فى ظلال دولة المماليك البحرية التى امتد سلطانها فشمل الشام واليمن والحجاز وأطراف العراق ، وعاصر ابن تيمية السلطان الأشرف خليل الذى قضى على إمارات الصليبيين فى الشام عام ٦٩١ هـ ومن خلفه من السلاطين .

وكان مولد الإمام ابن تيمية فى حران ثم انتقل به وبإخوته والداه إلى دمشق ، حيث أقام ، وبها نشأ وعاش وامتدت به الحياة سبعا وستين سنة . حافلة بالأحداث والمحن والخطوب .

— ٢ —

وابن تيمية من أسرة علمية جليلة ، وكان أبوه وجده من علماء الإسلام المبرزين ، وكانا مثلين سائرين فى الزهد والورع ، وكانا يقومان بالخطابة والوعظ وخدمة القرآن والقيام على السنة مع الزهد والعفة والدين .

وقد قال الذهبي فى والده : كان إماما محققا كثير الفنون ، وإنما اختفى من ضوء الشمس - يريد والده - ونور القمر - يريد ابنه .

وكانت دمشق فى هذا العهد تضج بمجالس العلم وحلقات العلماء ، وكان للحنابلة فيها شأن أى شأن ، ومن أجل علمائهم آنذاك موفق الدين بن قدامة ، الذى يقول فيه تلميذه ابن تيمية : لم تر الشام بعد الأوزاعى مثل موفق الدين.

وقد تولى منصب قاضى القضاة فى دمشق مدة طويلة ٦٤٦ — ٦٧٦ هـ .

ودرس ابن تيمية فى المدرسة السكرية بدمشق وتخرج منها ، كما تخرج فيها والده من قبل .

وحفظ ابن تيمية القرآن واشتغل بالحديث ، ونبغ فى التفسير ، وقرأ

كتب الطبقات وتفوق فى العربية ، وقرأ كتاب سيبويه . وكان نادرة زمانه حفظا ورواية وذكاء وفقها فى علوم الدين .

وحفظ ابن تيمية العلوم واستوعب السنن والآثار ، وصار إن تكلم فى التفسير فهو حامل رايته وإن أفتى فى الفقه فهو مدرك غايته ، وإن ذاكر فى الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، وإن حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من علمه ولا أرفع من رايته ، برز فى كل فن وكل علم ، لم ترعين مثله ، آية فى نقد الرجال ، وعمدة فى الجرح والتعديل ، وعالم بالتفريع والتأصيل وإمام فى القراءات ، وفقيه بمختلف المذاهب والآراء والنظريات ، قائم بين الخلق بنشر السنة ومذهب السلف ؛ شجاعته وإقدامه وجهاده أمر تجاوز الوصف ، وفاق النعت . . واشترك فى حرب التتار ، وجاهد فى الله بلسانه وسنانه .

وشهد له علماء عصره بالتبريز حتى قال فيه معاصره الشيخ إبراهيم الرقى الشيخ تقى الدين يؤخذ عنه ، ويقلد فى العلوم ، فإن طال عمره ملأ الأرض علما ، وهو على الحق ولا بد من أن يعاديه الناس ، لأنه وارث علم النبوة .

وقال فيه العمرى : هو نادرة العصر ، وهو البحر من أى النواحى أتيته ، وهو البدر — من أى الضواحى رأيته ، قطع الليل والنهار دائبين ، واتخذ العلم والعمل صاحبين إلى أن أسر السلف بهداه ، ونأى الخلف عن بلوغ مداه ، جاء فى عصر مأهول بالعلماء مشحون بنجوم السماء ، إلا أن شمسه طمست تلك النجوم وبحره غرق تلك العلوم ترد إليه الفتاوى فلا يردها ، وتغدو عليه من كل وجه فيجيب عنها بأجوبة كأنه كان قاعدا لها يعدها . تقدم راكبا منهم إماما ولولاه ماركبوا وراءه ، ووصفه الذهبى بالعلم الغزير فى الحديث وعلومه والتفسير ودقائقه ، ويقول : ولفرط إمامته فى التفسير وعظمة اطلاعه بين خطأ كثير من أقوال المفسرين وينصر قولا واحدا يوافق مادل عليه القرآن والحديث .

وقال فيه الحافظ الزملكانى : لقد أعطى اليد الطولى فى حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين ، وقد ألان الله له العلوم ، كما ألان لداود الحديد .

— ٣ —

كان الإمام ابن تيمية يترسم خطا الإمام أحمد بن حنبل ، ويجله من كل جوانبه وبخاصة فى الفقه والعقائد ، ويقول عنه : صار أحمد مثلا سائرا يضرب فى المحنة والصبر على الحق ، ولم يكن يأخذه فى الله لومة لائم حتى صارت الإمامة مقرونة باسمه فى لسان كل أحد .

ونزل ابن تيمية مصر يستنهض المماليك لحرب المغول ، فأقام عند شرف الدين العمرى ، ولقيه أبا حيان النحو ، فأعجب به أبو حيان وقال فى ابن تيمية : مارأت عيناى مثله .

وفى عظمة الإمام ابن تيمية فى التفسير ، وسعة اطلاعه فيه يقول : ربما طالعت على الآية الواحدة مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم ، وأقول يامعلم آدم وإبراهيم علمنى ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهى فى التراب وأسأل الله تعالى وأقول : يامعلم إبراهيم علمنى .

ولقد بلغ الإمام ابن تيمية رتبة الاجتهاد واجتمعت فيه شروط المجتهدين.

ومع أنه كان حنبليا فقد كان له اجتهاد فى مذهب أحمد وينكر التعصب له ولغيره ، ويقول من تعصب لواحد من الأئمة بعينه فقد أشبه أهل الأهواء سواء تعصب لمالك أولأبى حنيفة أولأحمد أوغيرهم وذكر أن هذا التعصب كان من أسباب تفريق المسلمين وتسليط الله التتار على بلادهم .

ويعتمد مذهب أحمد على خمسة أصول : النص وفتوى الصحابة والتخير من أقوال الصحابة ـ عند اختلافهم ـ ما كان أقرب إلى الكتاب والسنة .

والأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه ويرجحه على القياس : وأخيرا القياس حيث يستعمله للضرورة . . وهذا ما كان عليه رأى ابن تيمية .

وقد اعتبر ابن تيمية الإجماع حجة ، والقياس الصحيح حجة ، والمصالح المرسلة حجة إذا استندت إلى شاهد من كتاب أو سنة . ويقول بوجوب أن تكون الأمور كلها مردودة إلى كتاب الله وسنة رسوله .

وكان يختار من الآراء الفقهية والأصولية مايراه متفقا مع ماصح عنده من فهم للكتاب أو للسنة وربما مال فى بعض المسائل عن مذهبه إلى مذهب أبى حنيفة أو مالك .

وقد حصل الفلسفة وكتب فلاسفة الإسلام ونقدها ، وعاب المنطق لأن بعضه حق ، وبعضه باطل .

وألف ابن تيمية فى كل علم ، وجال فى كل فن ، حتى بلغت مؤلفاته نحو الثلاثمائة ، مع ماابتلى به من المحن ، والحبس الطويل فى قلعة دمشق وفى سجون القاهرة والإسكندرية ، سجن فى القاهرة فى البرج ، ثم فى الجب هو وأخواه زين الدين وشرف الدين ولم يزده السجن إلا إصرارا على عقيدته وظل كذلك حتى أخرجه حسام الدين مهنا بن عيسى شيخ عربان الشام من جب بقى فيه ثمانية عشر شهرا ، وصبر ابن تيمية على أذى الأمراء ، وأذى العامة ، وعلى محن الحبس ، وعلى مكائد علماء عصره ، وزار فى مصر سجن القضاة بحارة الديلم قريبا من الأزهر ، وعاش فى الإسكندرية فى برج مطبق له شبا كان أحدهما إلى جهة البحر ، ولعله قلعة قايتباى ، وكان يتنقل من سجن إلى سجن ، تنقل النجم من برج إلى برج حتى أسلم الروح إلى بارئه عام ٧٢٨ هـ بعد كفاح طويل ، وحياة حافلة بالأحداث والخطوب .

ومن أجل كتبه فتاواه الشهيرة ذات الأثر الضخم فى حياة المسلمين فى

عصره وبعد عصره حتى اليوم ، ومن كتبه : منهاج السنة ، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح والفرقان . ورسائله : الحموية والتدمرية ، والوسطية والبغدادية والبعلبكية والأزهرية .

ومن المسائل التى أوذى الإمام ابن تيمية بسببها والتى أثارها نضاله مع الروافض . . مسألة زيارة القبور ، فقال فى كتابه - منهاج السنة - إن منهم من يجعل الحج إليها أعظم من الحج إلى الكعبة وهو يرى أن هذه المغالاة فى تعظيم القبور والمشاهد وشد الرحال إليها لم يرد به كتاب ولا سنة ولا عمل من صحابة أو تابعين .

ويقول فى فتواه المشهورة فى شد الرحال إلى زيارة القبور : أول من وضع هذه الأحاديث فى السفر لزيارة المشاهد التى على القبور أهل البدع من الروافض الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد مع أنه لايمنع الزيارة الخالية عن شد الرحال بل يندب إليها ، وكتبه ومناسكه شاهدة بذلك . وكانت هذه الفتوى سببا فى حبسه فى قلعة دمشق وقد أنكر ابن تيمية التوسل والوسيلة ، ويرى أن الوسيلة هى العمل الصالح يقدمه صاحبه بين يديه أمام الله عز وجل .

— ٤ —

وينتمى ابن تيمية إلى مذهب أهل الحديث والسنة ويقول بمذهب الجماعة كأحمد بن حنبل ، ويخاصم المعتزلة والأشاعرة وينقد الأشعرى والباقلانى وإمام الحرمين والغزالى ، وكان ينكر على الغزالى تحكيمه للفلسفة وقوانين المنطق فى أحكام الشريعة وأصولها ويبين أنه إنما عول على ابن سينا وجماعته إخوان الصفا وأخذ عنهم من الفلسفة ، كما أخذ من مذاهب التصوف عن أبى حيان التوحيدى واستمد من قوت القلوب لأبى طالب المكى ومن كتب الحارث المحاسبي ومن رسالة القشيرى وقد خلط التصوف بالكلام والأصول

بالفلسفة . وتأثر ابن تيمية بأسلوب الغزالى فى المناقشة والجدل ، واستعمل فى ذلك أساليب الفلسفة واصطلاحات المناطقة فى شتى رسائله وكتبه ، وله كتاب الرد على النطق ، وكتاب الرد على الفلاسفة .

وقد حاج الصوفية وكان يرى الصوفية المتأخرة مبتدعة لا يعرفها الإسلام أما التصوف الأول الذى ارتضاه السلف فهو جزء من السنة والأثر ، ومن أمثلته ما فى كتاب الزهد والورع لأحمد ، وكتب الحلال ، وآراء الجنيد ، وما عدا هذا فهو عنده بدعة ويمثل هذا النوع فى نظره الحلاج وابن عربى وابن سبعين وأضرابهم وناقش الشيخ ابن تيمية الخوارج والشيعة والروافض وكتابه « منهاج السنة النبوية » الذى كان نسيج وحده ـ يمثله لنا عالما من الطراز الأول . . ويناقش فيه رأى الشيعة والباطنية والقرامطة ويقول إن السواحل الشامية إنما استولت عليها النصارى من جهتهم وقد كفر الروافض ونقد المنحرفين .

وفى كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » يحاج الصوفية ويقول : إنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريقة الأنبياء . . ويرى أن آراء ابن عربى وابن سبعين وابن الفارض هى فلسفة يونانية خالصة وابن تيمية لا يجوز للقادر على الاستدلال أن يقلد إلا عند الحاجة فقد فتح باب الاجتهاد لكل قادر ، ومن كتابه « السياسية الشرعية » يرسم القواعد لإصلاح حال الراعى والرعية . ومذهب ابن حنبل يتمسك بنصوص الكتاب والسنة كالاستواء والنزول والوجه وغير ذلك من أحاديث الصفات ويقول ابن تيمية فى عقيدته الحموية عن أحمد : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والسنة وذلك من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، ويرى ما رآه أحمد فى القرآن الكريم من أنه كلام الله وهو غير مخلوق فمنه بدأ وإليه يعود كما ذكر فى ـ العقيدة الواسطية .

هذه الآراء الدينية الخطيرة هى التى ألبت عليه الحكام والعامة وعلماء عصره وقادته إلى المحن والخطوب وإلى السجن مرات ومرات وعاش موليا وجهه إلى السماء ، وكان فى الغاية التى انتهى إليها من الورع ، حتى استأثرت به رحمة الله .

وكان من أجل تلاميذه ابن القيم[1] رحمه الله (٦٩١ — ٧٥١ هـ ١٢٩٢ م — ١٣٥٠ م) وترك الإمام ابن تيمية ذكرا خالدا وعلما نادرا وكتبا سائرة ودعوات إصلاحية تقوم على مذهبه ، تأخذ منه وترجع إليه وتعتبره عمدتها فى الأصول والفروع ، ومنها الدعوة الإصلاحية الكبرى دعوة الإمام المصلح المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغيرها من الدعوات السلفية .

جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

---

(١) ابن القيم الجوزيه شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أبى بكر الدمشقى لازم الإمام ابن تيمية وأخذ عنه وتفنن فى جميع العلوم الإسلامية وأوذى مرات وسجن مع شيخه ابن تيمية فى قلعة دمشق ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ وله الكثير من المؤلفات مثل . . زاد المعاد ، ومدارج السالكين ، وحادى الأرواح .

مصادر هذا البحث :

مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى .

حياة شيخ الإسلام ابن تيمية لبهجة البيطار .

طبقات الحنابلة لأبى يعلى .

أحمد بن حنبل للشيخ محمد أبو زهرة .

الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب .

ابن تيمية بطل الإصلاح الدينى لمحمود مهدى استنبولى .

ابن تيمية لمحمد يوسف موسى .

ابن تيمية لعبد العزيز المراغى سلسلة أعلام الإسلام .

وراجع قادة الفكر الإسلامى للشيخ عبد الله بن سعد الرويشد .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف للكتاب

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما .

﴿ فصل ﴾

فى تفسير (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد) والاسم الصمد فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب . والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذى لاجوف له . والثانى : أنه السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة . والثانى قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها فى كتب التفسير المسندة وفى كتب السنة وغير ذلك ، وقد كتبنا من الآثار فى ذلك شيئا كثيراً بإسناده فيما تقدم وتفسير الصمد بأنه الذى لاجوف له معروف عن ابن مسعود موقوفا ومرفوعا وعن ابن عباس والحسن البصرى ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة والضحاك والسدى وقتادة ، وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال هو الذى لاحشو له ، وكذلك قال ابن مسعود : هو الذى ليست له أحشاء وكذلك قال الشعبى : هو الذى لايأكل ولا يشرب ، وعن محمد بن كعب القرظى وعكرمة هو الذى لايخرج منه شىء وعن ميسرة قال هو المصمت قال ابن قتيبة كأن الدال فى هذا التفسير مبدلة من تاء والصمت من هذا . قلت لاإبدال فى هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر وسنبين إن شاء الله وجه هذا القول من جهة الاشتقاق واللغة .

والحديث المأثور فى سبب نزول هذه الآية رواه الإمام أحمد فى المسند وغيره من حديث أبى سعد الصغانى حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنسب لنا ربك فأنزل الله (قل هو الله أحد الله الصمد) إلى آخر السورة ، قال الصمد الذى لم يلد ولم يولد لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت وليس شىء يموت إلا سيورث وإن الله لايموت ولا يورث ،

وأما تفسيره بأنه السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج فهذا أيضاً مروى عن ابن عباس موقوفا ومرفوعاً فهو من تفسير الوالبى عن ابن عباس قال : الصمد السيد الذى كمل فى سؤدده وهذا مشهور عن أبى وائل شقيق بن سلمة قال : هو السيد الذى انتهى سؤدده ، وعن أبى إسحق الكوفى عن عكرمة الصمد الذى ليس فوقه أحد .

ويروى هذا عن على وعن كعب الأحبار الذى لايكافئه من خلقه أحد وعن السدى أيضاً هو المقصود إليه فى الرغائب المستغاث به عند المصائب ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه هو المستغنى عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد ، وعن سعيد بن جبير الكامل فى جميع صفاته وأفعاله وعن الربيع الذى لاتعتريه الآفات وعن مقاتل بن حيان الذى لاعيب فيه وعن ابن كيسان هو الذى لايوصف بصفته أحد قال أبو بكر الأنبارى : لاخلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذى ليس فوقه أحد الذى يصمد إليه الناس فى حوائجهم وأمورهم ؛ وقال الزجاج هو الذى ينتهى إليه السؤدد فقد صمد له كل شيء أى قصد قصده وتأويل صمود كل شيء له أن فى كل شيء أثر صنعته . قلت وقد أنشدوا فى هذا بيتين مشهورين أحدهما :

ألا بكر الناعى بخيرى بنى أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال الآخر :

علوته بحسامى ثم قلت له
خذها حذيف فأنت السيد الصمد

قال بعض أهل اللغة الصمد هو السيد المقصود فى الحوائج تقول العرب صمدت فلانا أصمده — بكسر الميم — وأصمده — بضم الميم — صمدا — بسكون الميم — إذا قصدته ، والمصمود صمد كالقبض بمعنى المقبوض والنقض بمعنى المنقوض ويقال بيت مصمود ومصمد إذا قصده الناس فى حوائجهم قال طرفة :

وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى   إلى ذروة البيت الرفيع المصمد

وقال الجوهرى : صمده يصمده صمداً إذا قصده والصمد بالتحريك السيد لأنه يصمد إليه فى الحوائج ويقال بيت مصمد بالتشديد أى مقصود ، وقال الخطابى أصح الوجوه أنه السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج لأن الاشتقاق يشهد له فإن أصل الصمد القصد يقال أصمد صمد فلان أى أقصده قصده فالصمد السيد الذى يصمد إليه فى الأمور ويقصد فى الحوائج ، وقال قتادة : الصمد الباقى بعد خلقه ، وقال مجاهد ، ومعمر : هو الدائم وقد جعل الخطابى وأبو الفرج ابن الجوزى الأقوال فيه أربعة هذين واللذين تقدما وسنبين إن شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية ، وعن مرة الهمدانى هو الذى لايبلى ولا يفنى وعنه أيضاً قال هو الذى يحكم مايريد ويفعل مايشاء لامعقب لحكمه ولاراد لقضائه .

وقال ابن عطاء : هو المتعالى عن الكون والفساد ، وعنه أيضاً قال : الصمد الذى لم يتبين عليه أثر فيما أظهر يريد قوله : (وما مسنا من لغوب) وقال الحسين بن الفضل : هو الأزلى بلا ابتداء وقال محمد بن على الحكيم الترمذى : هو الأول بلا عدد والباقى بلا أمد والقائم بلا عمد ، وقال أيضاً الصمد الذى لاتدركه الأبصار ولا تحويه الأفكار ولاتبلغه الأقطار وكل شىء عنده بمقدار وقيل هو الذى جل عن شبه المصورين وقيل هو بمعنى نفى التجزى والتأليف عن ذاته وهذا قول كثير من أهل الكلام وقيل هو الذى أيست العقول من الاطلاع على كيفيته وكذلك قيل هو الذى لاتدرك حقيقة نعوته وصفاته فلا يتسع له اللسان ولا يشير إليه البنان ، وقيل الذى لم يعط خلقه من معرفته إلا الاسم والصفة ، وعن الجنيد قال الذى لم يجعل لأعدائه سبيلا إلى معرفته ونحن نذكر ماحضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها فروى ابن أبى حاتم فى تفسيره قال : حدثنا أبى حدثنا محمد بن موسى بن نفيع الجرشى حدثنا عبد الله بن عيسى يعنى أبا خلف الخزاز حدثنا داود بن أبى هند عن

عكرمة عن ابن عباس فى قوله الصمد قال الصمد الذى يصمد إليه الناس الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء .

حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسى حدثنا محمد بن سواء حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن أبى معشر عن إبراهيم قال الصمد الذى يصمد العباد إليه فى حوائجهم ، حدثنا أبى حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك حدثنا شريك بن عبد العزيز حدثنا سفيان بن حسين عن الحسن قال الصمد الحى القيوم الذى لا زوال له . حدثنا أبى حدثنا نصر بن على حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة عن الحسن قال الصمد الباقى بعد خلقه وهو قول قتادة . حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن نمير عن الأعمش عن شقيق فى قوله الصمد قال السيد الذى قد انتهى سؤدده .

حدثنا أبى حدثنا أبو صالح حدثنا معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله الصمد قال : السيد الذى قد كمل فى سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمل فى عظمته والحليم الذى قد كمل فى حلمه والعليم الذى قد كمل فى علمه والحكيم الذى قد كمل فى حكمته وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد هو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغى لأحد إلا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار .

حدثنا كثير بن شهاب المذحجى القزوينى حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى قوله الصمد قال الذى لم يلد ولم يولد . حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن عكرمة فى قوله الصمد قال الذى لم يخرج منه شيء . حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أحمد حدثنا مندل بن على عن أبى روق عطية بن الحارث عن أبى عبد الرحمن السلمى عن عبد الله بن مسعود قال الصمد الذى ليس له أحشاء وروى عن سعيد بن المسيب مثله .

حدثنا أبى حدثنا محمد بن عمر بن عبد الله الرومي حدثنا عبيد الله بن سعيد

قائد الأعمش عن صالح بن حيان عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال لا أعلمه إلا قد رفعه قال : الصمد الذى لاجوف له ، وروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود فى إحدى الروايات والحسن وعكرمة وعطية وسعيد ابن جبير ومجاهد فى إحدى الروايات والضحاك مثل ذلك حـــدثنا أبى حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال الصمد المصمت الذى لاجوف له .

حدثنا أبو عبد الله الطهرانى حدثنا حفص بن عمر العدنى حدثنا الحكم ابن أبان عن عكرمة فى قوله الصمد قال الصمد الذى لا يطعم . حدثنا أبى حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا هشيم عن إسمعيل بن أبى خالد عن الشعبي أنه قال الصمد الذى لا يأكل ولا يشرب الشراب . حدثنا أبى وأبو زرعة قالا حدثنا أحمد بن منيع حدثنا محمد ابن ميسر — يعنى أبا سعد الصغانى — حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله الصمد قال الصمد الذى لم يلد ولم يولد لأنه ليس شىء يلد إلا يموت وليس شىء يموت إلا يورث وإن الله لا يموت ولا يورث ولم يكن له كفواً أحد قال لم يكن له شبه ولا عدل وليس كمثله شىء .

حدثنا على بن الحسين حدثنا محمود بن خداش حدثنا أبو سعد الصغانى حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا إنسب لنا ربك فأنزل الله هذه السورة .

حدثنا أبو زرعة حدثنا العباس بن الوليد حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة ولم يكن له كفواً أحد قال إن الله لا يكافئه من خلقه أحد .

حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو عبد الله الجرشى حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى حدثنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال

إن اليهود جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم منهم كعب بن الأشرف وحيي ابن أخطب وجدى بن أخطب فقالوا : يامحمد صف لنا ربك الذى بعثك فأنزل الله (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد) فيخرج ابنه الولد (ولم يولد) فيخرج منه شيء ، وقال ابن جرير الطبرى فى تفسيره : حدثنا أحمد بن منيع المروزى ، ومحمود بن خداش الطالقانى فذكر مثل إسناد ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب سؤال المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم إنسب لنا ربك فأنزل الله (قل هو الله أحد) .

حدثنا ابن حميد حدثنا يحي بن واضح حدثنا الحسين عن يزيد عن عكرمة أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن صفة ربك ماهو ومن أى شيء هو ؟ فأنزل الله هذه السورة ورواه أيضاً عن أبى العالية وعن جابر بن عبد الله حدثنا شريح حدثنا إسمعيل بن مجاهد عن الشعبى عن جابر فذكره قال وقيل هو من سؤال اليهود .

حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة حدثنا ابن إسحق عن محمد بن سعيد قال أتى رهط من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه فجاءه جبريل فسكنه وقال اخفض عليك جناحك يامحمد وجاءه من الله جواب ماسألوه عنه قال يقول الله (قل هو الله أحد) إلى آخرها فلما تلاها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له صف لنا ربك كيف خلقه كيف عضده كيف ساعده وكيف ذراعه فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته الأولى وأتاه بجواب ماسألوه فأنزل الله (وما قدروا الله حق قدره) .

وروى الحكم بن معبد فى كتاب الرد على الجهمية قال حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان حدثنا سلمة بن شبيب حدثني يحي بن عبد الله حدثني ضرار

عن أبان عن أنس قال أتت يهود خيبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون وإبليس من لهب النار والسماء من دخان والأرض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك قال فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل فقال يا محمد : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) ليس له عروق شعب إليها — الصمد — ليس بأجوف لا يأكل لا يشرب ليس شيء يعتدل مكانه يمسك السموات والأرض أن تزولا الحديث ، وقال ابن جرير حدثنا عبد الرحمن بن الأسود حدثنا محمد بن ربيعة عن سلمة بن سابور عن عطية عن ابن عباس قال الصمد الذى ليس بأجوف .

حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد الصمد المصمت الذى لا جوف له ، حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن منصور سواء .

حدثنا الحارث حدثنا الحسن حدثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله .

حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا الربيع بن مسلمة عن الحسن قال الصمد الذى لا جوف له وهذا الإسناد عن إبراهيم بن ميسرة قال أرسلنى مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن الصمد فقال الذى لا جوف له . حدثنا ابن بشار حدثنا يحي حدثنا إسمعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال الصمد الذى لا يطعم الطعام ورواه يعقوب عن هشيم عن إسمعيل عنه قال لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

حدثنا بشار ، وزيد بن أخزم قالا حدثنا ابن داود عن المستقيم بن عبد الملك عن سعيد بن المسيب قال الصمد الذى لا حشو له . حدثنا الحسين حدثنا أبو معاذ حدثنا عبيد قال سمعت الضحاك يقول الصمد الذي لا جوف

له ، وروى عن ابن بريدة فيه حديثا مرفوعا لكنه ضعيف قال وقال آخرون هو الذى لايخرج منه شىء . حدثنا يعقوب بن أبى علية عن أبى رجاء سمعت عكرمة قال فى قوله الصمد لم يخرج منه شىء لم يلد ولم يولد . حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى رجاء محمد بن يوسف عن عكرمة قال الصمد الذى لايخرج منه شىء .

وقال آخرون لم يلد ولم يولد وذكر حديث أبى بن كعب الذى رواه ابن أبى حاتم والذى فيه أنه سبحانه لايموت ولا يورث قال وقال آخرون هو السيد الذى انتهى فى سؤدده ، وقال وحدثنا أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق قال الصمد هو السيد الذى انتهى فى سؤدده ، حدثنا أبو كريب وابن بشار ، وابن عبد الأعلى قالوا حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبى وائل قال الصمد السيد الذى انتهى فى سؤدده .

حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن الأعمش عن أبى وائل مثله حدثنا أبو صالح حدثنا معاوية عن على عن ابن عباس فى قوله الصمد قال السيد الذى كمل فى سؤدده وذكر مثل الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم كما تقدم ﴿قلت﴾ الاشتقاق يشهد للقولين جميعا قول من قال أن الصمد الذى لاجوف له وقول من قال أنه السيد وهو على الأول أدل فإن الأول أصل للثانى ولفظ الصمد يقال على ما لا جوف له فى اللغة ، قال يحيى بن أبى كثير الملائكة صمد والآدميون جوف ، وفى حديث آدم أن إبليس قال عنه أنه أجوف ليس بصمد .

وقال الجوهرى : المصمد لغة فى المصمت وهو الذى لاجوف له . قال والصماد عفاص القارورة . وقال : الصمد المكان المرتفع الغليظ قال أبو النجم :

يغادر الصمد كظهر الأجزل

وأصل هذه المادة الجمع والقوة ومنه يقال يصمد المال أى يجمعه ،

وكذلك السيد أصله سيود اجتمعت ياء وواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت كما قيل ميت وأصله ميوت والمادة فى السواد والسؤدد تدل على الجمع واللون الأسود هو الجامع للبصر وقد قال تعالى : (وسيدا وحصورا) قال أكثر السلف سيدا حليما وكذلك يروى عن الحسن ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، وعطاء ، وأبى الشعثاء بن أنس ، ومقاتل ، وقال أبو روق عن الضحاك أنه الحسن الخلق .

وروى سالم عن سعيد بن جبير أنه التقى ولا يسود الرجل الناس حتى يكون فى نفسه مجتمع الخلق ثابتاً ، وقال عبد الله بن عمر مارأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية فقيل له ولا أبو بكر ولا عمر قال كان أبو بكر وعمر خيرا منه وما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية ، قال أحمد بن حنبل : يعنى به الحلم أو قال الكرم ولهذا قيل :

إذا شئت يوما أن تسود قبيلة فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بأنه سيد قومه فى الدين وقال ابن زيد هو الشريف وقال الزجاج الذى يفوق قومه فى الخير ، وقال ابن الأنبارى السيد هنا الرئيس والإمام فى الخير ، وعن ابن عباس ومجاهد هو الكريم على ربه وعن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم وقد تقدم أنهم يقولون لعفاص القارورة صماد قال الجوهرى العفاص جلد يلبسه رأس القارورة وأما الذى يدخل فى فمه فهو الصمام وقد عفصت القارورة شددت عليها العفاص (قلت) وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى اللقطة « ثم اعرف عفاصها ووكاءها » والمراد بالعفاص مايكون فيه الدراهم كالخرقة التى تربط فيها الدراهم والوكاء مثل الخيط الذى يربط به وهذا من

جنس عفاص القارورة ولفظ العفص والسد والصمد والجمع والسؤدد معانيها متشابهة فيها الجمع القوة ويقال طعام عفص وفيه عفوصة أى تقبض ومنه العفص الذى يتخذ منه الحبر .

وقد قال الجوهرى : هو مولد ليس من كلام أهل البادية وهذا لا يضر لانه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب وكذلك تسميتهم لما يدخل فى فمها صمام فإن هذه المادة فيها معنى الجمع والسد . قال الجوهرى صمام القارورة سدادها والحجر الأصم الصلب المصمت والرجل الأصم هو الذى لايسمع لانسداد سمعه والرجل الصمة الشجاع والصمة الذكر من الحيات وصمة الشىء خالصه حيث لم يدخل إليه مايفوقه ويضعفه يقال صميم الحر وصميم البرد وفلان من صميم قومه ، والصمصام الصارم القاطع الذى لاينثنى وصمم فى السير وغيره أى مضى ورجل صمصم أى غليظ ومنه فى الاشتقاق الأكبر الصوم فإن الصوم هو الإمساك .

قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم لأن الإمساك فيه اجتماع والصائم لايدخل جوفه شىء ، ويقال صام الفرس إذا قام فى غير اعتلاف ، قال النابغة :

خيل صيام وخيـــل غير صائمة
تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وكذلك السد والسداد والسؤدد والسواد ، وكذلك لفظ الصمد فيه الجمع والجمع فيه القوة فإن الشىء كلما اجتمع بعضه إلى بعض ولم يكن فيه خلل كان أقوى مما إذا كان فيه خلو . ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع صمد لقوته وتماسكه واجتماع أجزائه والرجل الصمد هو السيد المصمود أى المقصود يقال قصدته وقصدت له وقصدت إليه وكذلك هو مصمود

ومقصود له وإليه والناس إنما يقصدون فى حوائجهم من يقوم بها وإنما يقوم بها من يكون فى نفسه مجتمعاً قوياً ثابتاً وهو السيد الكريم بخلاف من يكون هلوعا جزوعا يتفرق ويعلق ويتمزق من كثرة حوائجهم وثقلها فإن هذا ليس بسيد صمد يصمدون إليه فى حوائجهم فهم إنما سموا السيد من الناس صمداً لما فيه من المعنى الذى لأجله يقصده الناس فى حوائجهم فليس معنى السيد فى لغتهم معنى إضافى فقط كلفظ القرب والبعد بل هو معنى قائم بالسيد لأجله يقصده الناس والسيد من السؤدد والسواد وهذا من جنس السداد فى الاشتقاق الأكبر فإن العرب تعاقب بين حرف العلة والحرف المضاعف كما يقولون تقضى البازى وتقضض والساد هو الذى يسد غيره فلا يبقى فيه خلوا ومنه سداد القارورة وسداد الثغر بالكسر فيهما وهو مايسد ذلك ومنه السداد بالفتح وهو الصواب ومنه القول السديد قال الله تعالى : (اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) قالوا قصدا حقاً ، وعن ابن عباس صواباً وعن قتادة ومقاتل عدلا وعن السدى مستقيما وكل هذه الأقوال صحيح فإن القول السديد هو المطابق الموافق فإن كان خبراً كان صدقا مطابقاً لمخبره لايزيد ولا ينقص وإن كان أمراً كان أمراً بالعدل الذى لايزيد ولا ينقص ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل .

قال الجوهرى : التسديد التوفيق للسداد وهو الصواب والقصد فى القول والعمل ورجل مسدد إذا كان يعمل بالسداد والقصد والمسدد المقوم وسدد رمحه وأمر سديد وأسد أى قاصد وقد استد الشىء استقام قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رمانى

وقال الأصمعى اشتد بالشين المعجمة ليس بشىء وتعبيرهم عن السداد بالقصد يدلك على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة والقصد العدل كما أنه السداد والصواب وهو المطابق الموافق الذى لايزيد ولا ينقص وهذا

هو الجامع المطابق ، ومنه قوله تعالى (وعلى الله قصد السبيل) أى السبيل القصد وهو السبيل العدل أى إليه تنتهى السبيل العادلة كما قال تعالى : (إن علينا للهدى) أى الهدى إلينا هذا أصح الأقوال فى الآيتين وكذلك قوله تعالى : (قال هذا صراط على مستقيم) .

ومنه فى الاشتقاق الأوسط الصدق فإن حروفه حروف القصد فمنه الصدق فى الحديث لمطابقته مخبره كما قيل فى السديد والصدق بالفتح الصلب من الرماح ويقال المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل ولا عوج والصندوق واحد الصناديق فإنه يجمع مايوضع فيه ومما ينبغى أن يعرف فى باب الاشتقاق أنه إذا قيل هذا مشتق من هذا فله معنيان أحدهما أن بين القولين تناسباً فى اللفظ والمعنى سواء كان أهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذا بعد هذا وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الآخر فإن المقصود أنه مناسب له لفظا ومعنى كما يقال هذا الماء من هذا الماء وهذا الكلام من هذا الكلام وعلى هذا فإذا قيل أن الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل كان كلا القولين صحيحاً وهذا هو الاشتقاق الذى يقوم عليه دليل التصريف .

وأما المعنى الثانى فى الاشتقاق وهو أن يكون أحدهما أصلا للآخر فهذا إذا عنى به أن أحدهما تكلم به قبل الآخر لم يقم على هذا دليل فى الأكثر من المواضع وإن عنى به أن أحدهما متقدم على الآخر فى العقل لكون هذا مفرداً وهذا مركباً فالفعل مشتق من المصدر والاشتقاق الأصغر اتفـــاق القولين فى الحروف وترتيبها والأوسط اتفاقهما فى الحروف لافى الترتيب والأكبر اتفاقهما فى أعيان بعض الحروف وفى الجنس فى الباقى كاتفاقهما فى كونهما من حروف الحلق إذا قيل حزر وعزر وازر فإن الجميع فيه معنى القوة والشدة قد اشتركت الراء والزاى والحاء فى أن الثلاثة حروف حلقية وعلى هذا فإذا قيل الصمد

بمعنى المصمت وأنه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح فإن الدال أخت التاء فى أن الصمت السكوت وهو إمساك وإطباق للفم عن الكلام .

قال أبو عبيدة : المصمت الذى لاجوف له وقد أصمته أنا وباب مصمت قد أبهم إغلاقه والمصمت من الخيل البهم أى لون كان لايخالط لونه لون آخر ، ومنه قول ابن عباس إنما حرم من الحرير المصمت فالمصدر والمصمت متفقان فى الاشتقاق الأكبر وليست الدال منقلبة عن التاء بل الدال أقوى والمصمد أكمل فى معناه من المصمت وكلما قوى الحرف كان معناه أقوى فإن لغة العرب فى غاية الإحكام والتناسب ولهذا كان الصمت إمساك عن الكلام مع إمكانه والإنسان أجوف يخرج الكلام من فيه لكنه قد يصمت بخلاف الصمد فإنه إنما استعمل فيما لا تفرق فيه كالصمد والسيد والصمد من الأرض وصماد القارورة .

ونحو ذلك فليس فى هذه الألفاظ المتناسبة أكمل من ألفاظ الصمد فإن فيه الصاد والميم والدال وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ماينىاسبها من الحروف والمعانى المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل .

ومما يناسب هذه المعانى معنى الصبر فإن الصبر فيه جمع وإمساك ولهذا قيل: الصبر حبس النفس عن الجزع يقال صبر وصبرته أنا ومنه قوله تعالى (واصبر نفسك) وكذلك معنى السيد الصمد خلاف معنى الجزوع المنوع ومنه الصبرة من الطعام فإنها مجتمعة مكومة والصبارة الحجارة وصبر الشيء غلظه وضده الجزع وفيه معنى التقطع والتفرق يقال جزع له جزعة من المال أى قطع له قطعة والجزوعة القطعة من الغنم واجتزعت من الشجر عودا أي اقتطعته واكتسرته وجزعت الوادى إذا قطعته عرضا والجزع منعطف الوادى ومنه الجزع وهو الخرز اليمانى الذى فيه بياض وسواد وكذلك جزع البسر تجزيعا إذا أرطب نصفه ثلثاه وهو خلاف قولهم مصمت للون الواحد لما فى ذلك من الاجتماع وفى هذا من التفرق . وقد قال تعالى (إن

الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) .

قال الجوهرى : الهلع أفحش الجزع وقال غيره هو فى اللغة أشد الحرص وأسوأ الجزع ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع . وناقة هلواع إذا كانت سريعة السير خفيفة وذئب هلع بلع والهلع من الحرص والبلع من الابتلاع ولهذا كان كلام السلف فى تفسيره يتضمن هذه المعانى فروى عن ابن عباس قال هو الذى إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ، وروى عنه أنه قال هو الحريص على مالا يحل له وعن سعيد بن جبير شحيحا وعن عكرمة ضجورا وعن جعفر حريصا وعن الحسن والضحاك بخيلا وعن مجاهد شرها وعن الضحاك أيضا الهلوع الذى لايشبع وعن مقاتل ضيق القلب وعن عطاء عجولا ، وهذه المعانى كلها تنافى الثبات والقوة والاجتماع والإمساك والصبر ، وقد قال تعالى (لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) وهذا وإن كان قد قيل إن المراد به أنها تنصدع فيموتون فإنه كما قيل فى مثل ذلك قد انصدع قلبه وقد تفرق قلبى وقد تشتت قلبى وقد تقسم قلبى ، ومنه يقال للخوف قد فرق قلبه ويقال بإزاء ذلك هو ثابت القلب مجتمع القلب مجزوع القلب .

﴿ فصـــل ﴾

قال الله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد) فأدخل اللام فى الصمد ولم يدخلها فى أحد لأنه ليس فى الموجودات مايسمى أحدا فى الإثبات مفردا غير مضاف بخلاف النفى ومافى معناه كالشرط والاستفهام فإنه يقال هل عندك أحد وما جاءنى أحد إلا أكرمته وإنما استعمل فى العدد المطلق يقال أحد اثنان ويقال إحدى عشرة وفى أول الأيام يقال يوم الأحد فإن فيه على أصح القولين ابتدأ الله خلق السموات والأرض ومابينهما كما دل عليه القرآن والأحاديث الصحيحة فإن القرآن أخبر فى غير موضع أنه خلق

السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ، وقد ثبت فى الحديث الصحيح المتفق على صحته أن آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى قوله خلق التربة يوم السبت فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخارى وغيره قال البخارى : الصحيح أنه موقوف على كعب وقد ذكر تعليله البيهقى أيضا وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخراجه إياه كما أنكروا عليه إخراج أشياء يسيرة وقد بسط هـــذا فى موضع آخر وقد ذكر أبو الفراج ابن الجوزى فى قوله (خلق الأرض فى يومين) .

قال ابن عباس : خلق الأرض فى يوم الأحد والإثنين وبه قال عبد الله ابن سلام والضحاك ومجاهد وابن جريج والسدى والأكثرون وقال مقاتل فى يوم الثلاثاء والأربعاء قال وقد أخرج مسلم حديث أبى هريرة خلق التربة يوم السبت قال وهذا الحديث مخالف لما تقدم وهو أصح فصحح هذا لظنه صحة الحديث إذ رواه مسلم ولكن هذا له نظائر روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط مثل قول أبى سفيان لما أسلم أريد أن أزوجك أم حبيبة ولا خلاف بين الناس أنه تزوجها قبل إسلام أبى سفيان ولكن هذا قليل جدا .

ومثل ماروى فى بعض طرق حديث صلاة الكسوف أنه صلاها بثلاث ركوعات وأربع والصواب أنه لم يصلها إلا مرة واحدة بركوعين ولهذا لم يخرج البخارى إلا هذا وكذلك الشافعى . وأحمد بن حنبل فى إحدى الروايتين عنه وغيرهما والبخارى سلم من مثل هذا فإنه إذا وقع فى بعض

الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التى تبين غلط الغالط فإنه كان أعرف بالحديث وعلله وأفقه فى معانيه من مسلم ونحوه .

وذكر ابن الجوزى فى مواضع أخر أن هذا قول ابن إسحق وقال ابن الأنبارى وهذا إجماع أهل العلم وذكر قولا ثالثا فى ابتداء الخلق أنه يوم الإثنين وقال قال ابن إسحق وهذا تناقض وذكر أن هذا قول أهل الإنجيل والابتداء بيوم الأحد قول أهل التوراة وهذا النقل غلط على أهل الإنجيل كما غلط من جعل الأول إجماع أهل العلم من المسلمين ، وكأن هؤلاء ظنوا أن كل أمه تجعل اجتماعها فى اليوم السابع من الأيام السبعة التى خلق الله فيها العالم وهذا غلط فإن المسلمين إنما اجتماعهم فى آخر يوم خلق الله فيه العالم وهو يوم الجمعة كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة ، والمقصود هنا أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده وإنما يستعمل فى غير الله فى النفى قال أهل اللغة يقول لا أحد فى الدار ولا تقل فيها أحد ولهذا لم يجيء فى القرآن إلا فى غير الموجب كقوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) وكقوله (لستن كأحد من النساء) وقوله (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) وفى الإضافه كقوله (فابعثوا أحدكم وجعلنا لأحدهما جنتين) .

وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة فى حق المخلوقين كما تقدم فلم يقل الله صمد بل قال الله الصمد فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ماسواه فإنه المستوجب لغايته على الكمال والمخلوق وأن كان صمدا من بعض الوجوه فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه فإنه يقبل التفرق والتجزئة وهو أيضا محتاج إلى غيره فإن كل ماسوى الله محتاج إليه من كل وجه فليس أحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله وليس فى المخلوقات إلا مايقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم وينفصل بعضه من بعض والله سبحانه هو الصمد الذى لايجوز عليه شيء من ذلك بل حقيقة الصمدية وكمالها له

وحده واجبة لازمة لايمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه كما لايمكن ثنائية أحديته بوجه من الوجوه فهو أحد لايماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه كما قال فى آخر السورة ولم يكن له كفوا أحد استعملها هنا فى النفى أى ليس شيء من الأشياء كفوًا له فى شيء من الأشياء لأنه أحد .

وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أنت سيدنا فقال السيد الله ودل قوله الأحد الصمد على أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فإن الصمد هو الذى لاجوف له ولا أحشاء فلايدخل فيه شيء فلا يأكل ولايشرب سبحانه وتعالى كما قال (أفغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) وفى قراءة الأعمش وغيره ولا يطعم بالفتح وقال تعالى (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون أن الله هو الرازق) .

ومن مخلوقاته الملائكة وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته فلهذا فسر بعض السلف الصمد بأنه الذى لايأكل ولا يشرب والصمد المصمد الذى لاجوف له فلا يخرج منه عين من الأعيان فلا يلد ولذلك قال من قال من السلف هو الذى لا يخرج منه شيء ليس مرادهم أنه لايتكلم وإن كان يقال فى الكلام أنه خرج منه كما قال فى الحديث « ماتقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » يعنى القرآن .

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة إن هذا لم يخرج من إلّ فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه ويبلغ إلى غيره ليس بمخلوق فى غيره كما يقول الجهمية ليس بمعنى أن شيئاً من الأشياء القائمة به يفارقه وينتقل عنه إلى غيره فإن هذا ممتنع فى صفات المخلوقين أن تفارق الصفة محلها وتنتقل إلى غير محلها فكيف بصفات الخالق جل جلاله ، وقد قال تعالى فى كلام المخلوقين (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون

إلا كذباً) وتلك الكلمة هى قائمة بالمتكلم وسمعت منه ليس خروجها من فيه أن ماقام بذاته من الكلام فارق ذاته وانتقل إلى غيره فخروج كل شىء بحسبه ومن شأنه العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لاينقص من محله ولهذا شبه بالنور الذى يقتبس منه كل أحد للضوء وهو باق على حاله لم ينقص فقول من قال من السلف الصمد هو الذى لم يخرج منه شىء كلام صحيح بمعنى أنه لا يفارقه شىء منه .

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد وذلك أن الولادة والمتولد وكل مايكون من هذه الألفاظ لايكون إلا من أصلين وما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها وما كان عرضاً قائماً بغيره فلابد له من محل يقوم به فالأول نفاه بقوله أحد فإن الأحد هو الذى لا كفؤ له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة والتولد إنما يكون بين شيئين قال تعالى (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم) فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم وبأنه خالق كل شىء وكل ماسواه مخلوق له ليس فيه شى مولود له .

والثانى نفاه بكونه سبحانه الصمد وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين كتوالد الحيوان من أبيه وأمه بالمنى الذى ينفصل من أبيه وأمه فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر إلى أن يخرج منهما شىء وكل ذلك ممتنع فى حق الله تعالى فإنه أحد فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيرا وهو صمد لايخرج منه شىء فكل واحد من كونه أحد ومن كونه صمدا يمنع أن يكون والداً وأن ويمنع يكون مولودا بطريق الأولى والأخرى .

وكما أن التوالد من الحيوان لا يكون إلا من أصلين سواء كان الأصلان من جنس الولد وهو الحيوان المتولد أو من غير جنسه وهو المتولد فكذلك فى غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين سواء كانا خشبتين أو كانا حجرا

وحديداً أو غير ذلك قال الله تعالى (فالموريات قدحا) وقال تعالى (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤن نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) وقال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون) .

قال غير واحد من المفسرين : هما شجرتان يقال لإحداهما المرخ والأخرى العفار فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضرا وأن يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى وتقول العرب فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار . وقال بعض الناس فى كل شجرة نار إلا العناب فإذا أنتم منه توقدون فذلك زنادهم .

وقد قال أهل اللغة الجوهرى وغيره : الزند الذى يقدح به النار وهو أعلى والزندة السفلى فيها ثقب وهى الأنثى فإذا اجتمعا قيل زندان ، وقال أهل الخبرة بهذا أنهم يستحقون الثقب الذى فى الأنثى بالأعلى كما يفعل ذكر الحيوان فى أنثاه فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار فتتولد النار من مادة الذكر والأنثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة وسحق الأنثى بالذكر وقدحها به يقتضى حرارة كل منهما ويتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما أن إيلاج ذكر الحيوان فى أنثاه بقدح وحك فرجها بفرجه فتقوى حرارة كل منهما ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى ويتولد منهما الولد ، ويقال علقت النار فى المحل الذى يقدح عليه الذى هو كالرحم للولد وهو الحراق والصوفان ونحو ذلك مما يكون أسرع قبولا للنار من غيره كما علقت المرأة من الرجل وقد لاتعلق النار كما قد لاتعلق المرأة وقد لاتنقدح نار كما لاينزل منى والنار ليست من جنس الزنادين بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء والطين فإن الحيوان نوعان متوالد كالإنسان

وبهيمة الأنعام وغير ذلك مما يخلق من أبوين ومتولد كالذى يتولد من الفاكهة والخل وكالقمل الذى يتولد من وسخ جلد الإنسان وكالفار والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب .

وقد تنازع الناس فيما يخلق الله من الحيوان والنبات والمعدن والمطر والنار التى تورى بالزناد وغير ذلك هل تحدث أعيان هذه الأجسام فتقلب هذا الجنس إلى جنس آخر كما يقلب المنى علقة ثم مضغة أو لا تحدث إلا أعراض وأما الأعيان التى هى الجواهر فهى باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الأكوان الأربعة الاجتماع والافتراق والحركة والسكون على قولين فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة التى لا تقبل التجزى كما يقوله كثير من أهل الكلام وأما من جواهر لانهاية لها كما يحكى عن النظام فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر يقولون إن الله لا يحدث شيئاً قائماً بنفسه وإنما يحدث الأعراض التى هى الاجتماع والافتراق والحركة والسكون وغير ذلك من الأعراض .

ثم من قال منهم بأن الجواهر محدثة قال إن الله أحدثها ابتداء ثم جميع ما يحدثه إنما هو أحداث أعراض فيها لا يحدث الله بعد ذلك جواهر وهذا قول أكثر المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم ، ومن أكابر هؤلاء من يظن أن هذا دين المسلمين ويذكر إجماع المسلمين عليه وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ولا جمهور الأمة بل جمهور الأمة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد وتركب الأجسام من الجواهر ، وابن كلاب أمام أتباعه هو ممن ينكر الجوهر الفرد .

وقد ذكر ذلك أبو بكر بن فورك فى مصنفه الذى صنفه فى مقالات ابن كلاب وما بينه وبين الأشعرى من الخلاف وهكذا نفى الجوهر الفرد قول الهشامية والضرارية وكثير من الكرامية والنجارية أيضاً ، وهؤلاء القائلون

بأن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة المشهور عنهم بأن الجواهر متماثلة بل ويقولون أو أكثرهم أن الأجسام متماثلة لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة وإنما اختلف باختلاف الأعراض وتلك صفات عارضة لها ليست لازمة فلا تنفى التماثل فإن حد المثلين أن يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له مايجب له ويمتنع عليه مايمتنع عليه وكذلك الأجسام المؤلفة من الجواهر .

ولهذا إذا أثبتوا حكما لجسم قالوا هذا ثابت لجميع الأجسام بناء على التماثل وأكثر العقلاء ينكرون هذا وحذاقهم قد أبطلوا الحجج التي احتجوا بها على التماثل كما ذكر ذلك الرازى والآمدى وغيرهما وقد بسط الكلام على هذا فى مواضع والأشعرى فى كتاب الإبانة جعل القول بتماثل الأجسام من أقوال المعتزلة التى أنكرها وهؤلاء يقولون أن الرب يخص أحد الجسمين المتماثلين بأعراض دون الآخر بمجرد المشيئة على أصل الجهمية أو لمعنى آخر مما يقوله القدرية ويقولون يمتنع انقلاب الأجناس فلا ينقلب الجسم عرضا ولا جنسا من الأعراض إلى جنس آخر فلو قالوا أن الأجسام مخلوقة وأن المخلوق ينقلب من جنس آخر لزم انقلاب الأجناس فهؤلاء يقولون أن التولد الحاصل فى الرحم والثمر الحاصل فى الشجر والنار الحاصلة فى الزناد هى جواهر كانت فى المادة التى خلق منها وهى بعينها باقية لكن غيرت صفتها بالاجتماع والافتراق والحركة والسكون .

ولهذا لما ذكر أبو عبد الله الرازى أدلة إثبات الصانع ذكر أربعة طرق إمكان الذوات وحدوثها وإمكان الصفات وحدوثها والطرق الثلاثة الأول ضعيفة بل باطلة فإن الذوات التى ادعوا حدوثها أو إمكانها وإمكان صفاتها ذكروها بألفاظ مجملة لايتميز فيها الخالق عن المخلوق ولم يقيموا على ماادعوه دليلا صحيحا ، وأما الطريق الرابع وهو الحدوث لما يعلم حدوثه فهو طريق صحيح وهو طريق القرآن لكن قصروا فيه غاية التقصير فإنهم على أصلهم لم

يشهدوا حدوث شيء من الذوات بل حدوث الصفات وطريقة القرآن تبين أن كل ماسوى الله مخلوق وأنه آية لله .

وقد بسط الكلام على مافى للقرآن من البراهين والآيات التى لم يصل إليها هؤلاء المتكلمة والمتفلسفة وأن كل ماعندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن فى غير موضع والمقصود هنا أن هؤلاء لما كان هذا أصلهم فى ابتداء الخلق وهو القول بإثبات الجوهر الفرد كان أصلهم فى المعاد مبنيا عليه فصاروا على قولين منهم من يقول بعدم الجواهر ثم تعاد ومنهم من قال تتفرق الأجزاء ثم تجتمع فأورد عليهم الإنسان الذى يأكله حيوان وذلك الحيوان أكله إنسان آخر فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا وأورد عليهم أن الإنسان يتحلل دائما فماذا الذى يعاد أهو الذى كان وقت الموت ؟ فإن قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ماجاءت به النصوص وإن كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض فادعى بعضهم أن فى الإنسان أجزاء أصلية لاتتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذى أكله الثانى والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شيء باق فصار ماذكروه فى المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة فى إنكار معاد الأبدان وأوجب أن صار طائفة من النظار إلى أن الله يخلق بدنا آخر تعود الروح إليه والمقصود تنعيم الروح وتعذيبها سواء كان فى هذا البدن أو فى غيره .

وهذا أيضا مخالف للنصوص الصريحة بإعادة هذا البدن وهذا المذكور فى كتب الرازى فليس فى كتبه وكتب أمثاله فى مسائل أصول الدين الكبار القول الصحيح الذى يوافق المنقول والمعقول الذى بعث الله به الرسول وكان عليه سلف الأمة وأئمتها بل يذكر بحوث المتفلسفة الملاحدة وبحوث المتكلمين المبتدعة الذين بنوا على أصول الجهمية والقدرية فى مسائل الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وكلا الطريقين فاسد إذ بنوه على مقدمات فاسدة .

والقول الذى عليه السلف وجمهور العقلاء من أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة والأطباء وهذا القول وهو القول فى خلق الله للأجسام التى يشاهد حدوثها أنه يقلبها ويحيلها من جسم إلى جسم هو الذى عليه السلف والفقهاء قاطبة والجمهور ولهذا يقول الفقهاء فى النجاسة هل تطهر بالاستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا والخنزير وغيره ملحا ونحو ذلك والمنى الذى فى الرحم يقلبه الله علقة ثم مضغة وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التى يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذى نزل عليها وغير ذلك من المواد التى يقلبها ثمرة بمشيئته وقدرته وكذلك الحبة يفلقها وتنقلب المواد التى يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك .

وهكذا خلقه لما يخلقه سبحانه وتعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظما ولحما وغير ذلك من أجزاء البدن وكذلك المضغة يقلبها عظاما وغير عظام قال الله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) فنفس تلك الأجزاء التى خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان فى الشجر الأخضر نار أصلا كما لم يكن فى الشجرة ثمرة أصلا ولا كان فى بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا وبما ضمه إلى هذا من مواد أخر .

وكذلك الإعادة يعيده بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب» ، وهو إذا أعاد الإنسان فى النشأة الثانية لم تكن

تلك النشأة مماثلة لهذه فإن هذه كائنة فاسدة وتلك كائنة لا فاسدة بل باقية دائمة وليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وإنما هو رشح كرشح المسك ، وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا أنا كنا فاعلين) فهم يعودون غلفا لا مختونين .

وقال الحسن البصرى ومجاهد : كما بدأكم نخلقكم فى الدنيا ولم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء ، وقال قتادة بدأهم من التراب وإلى التراب يعودون كما قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وقال (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) .

وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس فى النشأة الثانية بإحياء الأرض بعد موتها فى غير موضع كقوله (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وقال (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى) إلى قوله (وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) وقال تعالى (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شىء قدير) .

وقال تعالى : (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق وأنه يحي العظام وهى رميم وأنه يخرج الناس من الأرض تارة

أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) ويخبر أن الثانى مثل الأول كقوله تعالى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه) .

وقال تعالى : « وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » وقال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) وقال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير) وقال (أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) .

والمراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم كما أخبر بذلك فى قوله (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى) فإن القوم ما كانوا ينازعون فى أن الله يخلق فى هذه الدار ثانيا أمثالهم فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين وهذه هى النشأة الأولى وقد علموها ، وبها احتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) وقال (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقال (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم) ولهذا قال (على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون) .

قال الحسن بن الفضل البجلي الذى عندى فى هذه الآية وننشئكم فيما لاتعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى بخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لاتعلمون كيف شئت وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت فى بطون الأمهات وليست الآخرة كذلك ، ومعلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح وتلك النطفة من منى الرجل والمرأة وهو يغذيه بدم الطمث الذى يربيه الله فى ظلمات ثلاث : ظلمة المشيمة وظلمة الرحم . وظلمة البطن ، والنشأة الثانية لايكونون فى بطن امرأة ولايغذون بدم ولا يكون أحدهم نطفة رجل وامرأة ثم يصير علقة بل ينشئون نشأة أخرى وتكون المادة من التراب كما قال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

وقال تعالى : (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) وقال (والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) .

وفى الحديث « إن الأرض تمطر مطرا كمنى الرجال ينبتون فى القبور كما ينبت النبات » كما قال تعالى كذلك الخروج كذلك النشور وكذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ وجعل مثله أيضا فباعتبار اتفاق المبدأ أو المعاد فهو هو وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله .

وهكذا كل ماأعيد فلفظ الإعادة يقتضى المبدأ أو المعاد سواء فى ذلك إعادة الأجسام والأعراض كإعادة الصلاة وغيرها فإن النبى صلى الله عليه وسلم مر برجل يصلى خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة ويقال للرجل : أعد كلامك وفلان قد أعاد كلام فلان بعينه ويعيد الدرس فالكلام هو الكلام وإن كان صوت الثانى غير صوت الأول وحركته ولا يطلق القول

عليه أنه مثله بل قد قال تعالى (قل لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً وإن كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان أى مثل هذا قال ويقال فعل هذا عودا على بدء إذا فعله مرة ثانية بعد أولى ومنه البئر البدى والبئر العادى فالبدى التى ابتدأت والعادى التى أعيدت وليست بنسبة إلى عاد كما قيل ، ويقال استعدته الشيء فأعاده إذا سألته أن يفعله مرة ثانية ومنه سميت العادة يقال عادة واعتاده وتعوده أى صار عادة له ، وعود كلبه الصيد فتعوده وهو من المعاودة والمعاودة الرجوع إلى الأمر الأول ويقال الشجاع معاود لأنه لا يمل المراس وعاودته الحمى وعاوده بالمسألة أى سأله مرة بعد مرة وتعاود القوم فى الحرب وغيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه والعواد بالضم ما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه مرة أخرى ، وعواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففى جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة باعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة فى المرة الثانية هى الأولى وإن تعدد الشخص .

ولهذا يقال هو مثله ويقال هذا هو هذا وكلاهما صحيح وأعنى بالحقيقة الأمر الذى يختص بذلك الشخص ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده وإنما يقال حاكاه وشابهه بخلاف ما إذا فعل ثانيا مثل ما فعل أولا فإنه يقال أعاد فعله وكذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده ولا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده ويقال قرىء على هذا وأعاد على هذا وهذا يقرأ أى يدرس وهذا يعيد ولو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد .

وكذلك من كسر خاتماً أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان ويقال

لمن هدم داراً أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فإن هذا لا يسمى معيداً والمعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه ويقال هذا مثل الأول من كل وجه ونحو ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه وهو مثله من وجه ، وبهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان ونحو ذلك مما يمنع إعادته فى صريح العقل وإنما يعاد بالإتيان بمثله وإن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلا بوجه من الوجوه والإعادة التى أخبر الله بها هى الإعادة المعقولة فى هذا الخطاب وهى الإعادة التى فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى التى يدل عليها لفظ الإعادة والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البدأة فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول لأن الجسد الثانى مباين للأول من كل وجه كما زعم بعضهم ولأن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه كما ظن بعضهم .

وكما أنه سبحانه خلق الإنسان ولم يكن شيئاً كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً ، وعلى هذا فالإنسان الذى صار ترابا ونبت من ذلك التراب نبات أكله إنسان آخر وهلم جرا والإنسان الذى أكله إنسان أو حيوان وأكل ذلك الحيوان إنساناً آخر ففى هذا كله قد عدم هذا الإنسان وهذا الإنسان فصار كل منهما تراباً كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا ويعاد هذا من التراب إنما يبقى عجب الذنب منه خلق ومنه يركب .

وأما سائره فعدم فيعاد من المادة التى استحال إليها فإذا استحال فى القبر الواحد ألف ميت وصاروا كلهم تراباً فإنهم يعادون ويقومون من ذلك القبر وينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدما محضاً كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضاً وإذا صار ألف إنسان تراباً فى قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم فى النشأة الأولى التى خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وجعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام

والشراب كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات وحيوان .

وكذلك لو أكل إنساناً أو أكل حيواناً قد أكل إنساناً فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الاستحالة بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة ومن غير أن يغذوها بدم الطمث ومن غير أن يغذوها بلبن الأم وبسائر ما يأكله من الطعام والشراب فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي استحالت إلى أبدانهم فقد غلط وحينئذ فإذا أكل إنسان إنساناً فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية وهو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية ومعلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاما وشراباً ثم يصير كلوساً كالثردة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى فى البدن كله ويأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظماً واللحم لحماً والعرق عرقاً وهذا فى الرزق كاستحالتهم فى مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة وكما أنه سبحانه لا يحتاج فى الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها فاكهة ولحماً ثم يجعلها كلوساً وكيموساً ثم دما ثم عظما ولحماً وعروقاً بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال (وننشئكم فيما لا تعلمون) .

ولا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الاستحالات التي كانت فى النشأة الأولى وبهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائما فى التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من انقلاب النطفة علقة والعلقة مضغة وحقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى .

وأما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى وتماثلها وإذا كان فى الإعادة لا يحتاج إلى انقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بانقلابه بسبب التحلل ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو شاب ثم رآه وهو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الاستحالة وكذلك سائر الحيوان والنبات كمن غاب عن

شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هى الأولى مع أن التحلل والاستحالة ثابت فى سائر الحيوان والنبات كما هو فى بدن الإنسان .

ولا يحتاج عاقل فى اعتقاده أن هذه الشجرة هى الأولى وأن هذه الفرس هى التى كانت عنده من سنين ولا أن هذا الإنسان هو الذى رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل ولا يخطر هذا ببال أحد ولا يقتصر العقلاء فى قولهم هذا هو ذاك على تلك الأجزاء التى لا تعرف ولا تتميز عن غيرها بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة والفرس والإنسان مع أنه قد يكون كان صغيراً فكبر ولا يقال إنما كان هو ذاك باعتبار أن النفس الناطقة واحدة كما زعمه من ادعى أن البدن الثانى ليس هو الأول ولكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ففى أى بدن كانت حصل المقصود فإن هذا أيضا باطل مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف مخالف للمعقول من الإعادة .

فإنا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس هو ذاك وهذه الشجرة هى تلك التى كانت من سنين مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه وتقوم بذاتها وكذلك يقولون مثل هذا فى الحيوان وفى الإنسان مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا وذاك نفس مفارقه بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانو يعلمون أن هذا البدن هو ذاك مع وجود الاستحالة وعلم بذلك أن ماذكر من الاستحالة لاينافى أن يكون البدن الذى يعاد فى النشأة الثانية هذا هو البدن ولهذا يشهد البدن المعاد بما عمل فى الدنيا كما قال تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانو يكسبون) .

وقال تعالى (حتى إذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) .

ومعلوم أن الإنسان لو قال أو فعل فعلا أو رأى غيره يفعل أو سمعه يقول ثم بعد ثلاثين سنة شهد على نفسه بما قال أو فعل وهو الإقرار الذى يؤاخذ بموجبه أو شهد على غيره من الأموال وأقربه من الحقوق لكانت الشهادة على عين ذلك المشهود عليه مقبولة مع استحالة بدنه فى هذه المدة الطويلة ولا يقول عاقل من العقلاء أن هذه الشهادة على مثله أو على غيره ولو قدر أن المعين حيوان أو نبات وشهد أن هذا الحيوان قبضه هذا من هذا وأن هذا الشجر سلمه هذا إلى هذا كان كلاما معقولا مع الاستحالة وإذا كانت الاستحالة غير مؤثرة .

فقول القائل يعيده على صفة ماكان وقت موته أو سمنه أو هزاله وغير ذلك جهل منه فإن صفة تلك النشأة الثانية ليست مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال أن الصفات هى المغيرة إذ ليس هناك استحالة ولا استفراغ ولا امتلاء ولا سمن ولا هزال لاسيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة أبيهم آدم طول أحدهم ستون ذراعا كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما وروى أن عرضه سبعة أذرع وهم لايبولون ولايتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وليست تلك النشأة من أخلاط متضادة حتى يستلزم مفارقة بعضها بعضا كما هى هذه النشأة ولا طعامهم مستحيلا ولا شرابهم مستحيلا من التراب والماء والهواء كما هى أطعماتهم فى هذه النشأة ولهذا أبقى الله طعام الذى مر على قرية وشرابه مائة عام لم يتغير ودلناسبحانه بهذا على قدرته فإذا كان فى دار الكون والفساد يبقى الطعام الذى هو رطب وعنب أو نحو ذلك والشراب الذى هو ماء أو مافيه ماء مائة عام لم يتغير فقدرته سبحانه وتعالى على أن يجعل الطعام والشراب فى النشأة الأخرى لايتغير بطريق الأولى والأخرى ، وهذه الأمور لبسطها موضع آخر .

﴿ فصل ﴾

والمقصود هنا أن التولد لابد له من أصلين وإن ظن ظان أن نفس الهواء

الذى بين الزنادين يستحيل ناراً بسخونته من غير مادة تخرج منهما تنقلب ناراً فقد غلط وذلك لأنه لاتخرج ناران لم يخرج منهما مادة بالحك ولاتخرج النار بمجرد الحك .

وأيضاً فإنهم يقدحون على شيء أسفل من الزنادين كالصوفان والحراق فتنزل النار عليه وإنما ينزل الثقيل فلولا أن هناك جزأ ثقيلا من الزناد الحديد والحجر لما نزلت النار ولو كان الهواء وحده انقلب نارا لم ينزل لأن الهواء طبعه الصعود لا الهبوط لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة نارا قد ينقلب الهواء القريب منها نارا إما دخانا وإما لهيباً والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين كما خلق آدم من التراب والماء وإلا فالتراب المحض الذى لم يختلط به ماء لايخلق منه شيء لاحيوان ولا نبات والنبات جميعه إنما يتولد من أصلين أيضاً ، والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل كما قال تعالى : (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقال (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) وقال (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) .

وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ فى جيب درعها والجيب هو الطوق الذى فى العنق ليس هو مايسميه بعض العامة جيباً وهو مايكون فى مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها ، وموسى لما أمره أن يدخل يده فى جيبه هو ذلك الجيب المعروف فى اللغة .

وذكر أبو الفرج وغيره قولين هل كانت النفخة فى جيب الدرع أوفى الفرج ؟ فإن من قال بالأول قال فى فرج درعها وأن من قال هو مخرج الولد قال إنها كناية عن غير مذكور لأنه إنما نفخ فى درعها لافى فرجها وهذا ليس بشيء بل هو عدول عن صريح القرآن وهذا النقل إن كان ثابتا لم

يناقض القرآن وإن لم يكن ثابتا لم يلتفت إليه وإن من نقل أن جبريل نفخ فى جيب الدرع فراده أنه صلى الله عليه وسلم لم ينكشف بدنها وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة متجردة لم ينظر إليها متجردة فنفخ فى جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها .

والمقصود إنما هو النفخ فى الفرج كما أخبر الله به فى آيتين وإلا فالنفخ فى الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن مع أنه لا تأثير له فى حصول الولد ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف .

والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين من نفخ جبريل ومن أمه مريم وهذا النفخ ليس هو النفخ الذى يكون بعد مضى أربعة أشهر والجنين مضغة فإن ذلك نفخ فى بدن قد خلق وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد ولا كانت مريم حملت وإنما حملت به بعد النفخ بدليل قوله : (قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً) .

فلما نفخ فيها جبريل حملت به ولهذا قيل فى المسيح روح منه باعتبار هذا النفخ وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذى هو روحه وهو جبريل هو الروح الذى خاطبها وقال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً فقوله ونفخنا فيها أو فيه من روحنا أى من هذا الروح الذى هو جبريل وعيسى روح من هذا الروح فهو روح من الله بهذا الاعتبار ومن لابتداء الغاية ، والمقصود هنا أنه قد يكون الشيء من أصلين بانقلاب المادة التى بينهما إذا التقيا وبينهما مادة فتنقلب وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلا بد من نقص أجزائها وهذا مثل تولد النار بين الزنادين إذا قدح الحجر بالحديد أو الشجر بالشجر كالمرخ والعفار فإنه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر

يستحيل بعض أجزائهما ويسخن الهواء الذى بينهما فيصير نارا والزندان كلما قدح أحدهما بالآخر نقصت إحداهما بقوة الحك فهذه النار استحالت عن الهواء وتلك الأجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر وكذلك النور الذى يحصل بسبب انعكاس الشعاع على مايقابل المضىء كالشمس والنار ، فإن لفظ النور والضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه كالنار التى فى رأس المصباح وهذه لاتحصل إلا بمادة تنقلب نارا كالحطب والدهن ويستحيل الهواء أيضاً نارا ولاينقلب الهواء نارا إلا بنقص المادة التى اشتعلت أو نقص الزندين ، وتارة يراد بلفظ النور والضوء والشعاع الشعاع الذى يكون على الأرض والحيطان من الشمس أو من النار فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه لابد له من محل يقوم به يكون قابلا له فلابد فى الشعاع من جسم مضىء ولابد من شىء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع وكذلك النار الحاصلة فى ذبالة المصباح فإذا وضعت فى النار أو وضع فيها حطب فإن النار تحل أولا المادة التى هى الدهن أو الحطب فيسخن الهواء المحيط بها فينقلب نارا وإنما ينقلب بعد نقص المادة وكذلك الريح التى تحرك النار مثل ماتهب الريح فيشتعل فى الحطب ومثل ماينفخ فى الكير وغيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما فى محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه نارا وما فى حركة الريح القوية من تحريك النار إلى المحل القابل له ، وقد ينقلب أيضاً الهواء القريب من النار فإن اللهيب هو الهواء انقلب نارا مثل مافى زبالة المصباح .

ولهذا إذا طفئت صار دخانا وهو هواء مختلط بنار كالبخار وهو هواء مختلط بماء والغبار هواء مختلط بتراب ، وقد يسمى البخار دخانا ومنه قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) .

قال المفسرون : بخار الماء كما جاءت الآثار أن الله خلق السموات من

بخار الماء وهو الدخان فالدخان الهواء المختلط بشيء حار ثم قد لايكون فيه ماء وهو الدخان الصرف وقد يكون فيه ماء فهو دخان وهو بخار كبخار القدر وقد يسمى الدخان بخاراً فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر وإن كان لارطوبة هنا بل دخان الطيب سمى بخارا

قال الجوهرى بخار الماء مايرتفع منه كالدخان والبخور بالفتح مايتبخر به لكن إنما يصير الهواء نارا بعد أن تذهب المادة التى انقلبت نارا كالحطب والدهن فلم تتولد النار إلا من مادة كما لم يتولد الحيوان إلا من مادة .

﴿ فصـــل ﴾

والمقصود أن كل مايستعمل فيه لفظ التولد من الأعيان القائمة فلا بد أن يكون من أصلين ومن انفصال جزء من الأصل وإذا قيل فى الشبع والرى أنه متولد أوفى زهوق الروح ونحو ذلك من الأعراض أنه متولد فلابد فى جميع مايستعمل فيه هذا اللفظ من أصلين لكن العرض يحتاج إلى محل لايحتاج إلى مادة تنقلب عرضا بخلاف الأجسام فإنها إنما تخلق من مواد تنقلب أجساماً كما تنقلب إلى نوع آخر كانقلاب الماء علقة ثم مضغة وغير ذلك من خلق الحيوان والنبات ، وأما ما كان من أصل واحد كخلق حواء من ضلع القصرى وهو وإن كان مخلوقا من مادة أخذت من آدم فلايسمى هذا تولدا ولهذا لايقال إن آدم ولد حواء ولايقال أنه أبو حواء بل خلق الله حواء من آدم كما خلق آدم من الطين .

وأما المسيح فيقال أنه ولدته مريم ويقال المسيح ابن مريم فكان المسيح جزءا من مريم وخلق بعد نفخ الروح فى فرج مريم كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وفى الأخرى (فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) .

وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم كما خلق آدم من المادة الارضية وهى الماء والتراب والريح الذى أيبسه حتى صار صلصالا فلهذا لا يقال آدم ولد حواء ولا آدم ولده التراب ، ويقال فى المسيح ولدته مريم فإنه كان من أصلين من مريم ومن النفخ الذى نفخ فيها جبريل .

قال الله تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) إلى آخر القصة فهى إنما حملت به بعد النفخ لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الآدميين ففرق بين النفخ للحمل وبين النفخ لروح الحياة ، فتبين أن ما يقال أنه متولد من غيره من الأعيان القائمة بنفسها فلا يكون إلا من مادة تخرج من ذلك الوالد ولا يكون إلا من أصلين والرب تعالى صمد فيمتنع أن يخرج منه شىء وهو سبحانه لم يكن له صاحبة فيمتنع أن يكون له ولد .

وأما ما يستعمل من تولد الأعراض كما يقال تولد الشعاع وتولد العلم عن الفكر وتولد الشبع عن الأكل وتولدت الحرارة عن الحركة ونحو ذلك فهذا ليس من تولد الأعيان مع أن هذا لا بد له من محل ولا بد له من أصلين ولهذا كان قول النصارى أن المسيح ابن الله مستلزما لأن يقولوا أن مريم صاحبة الله فيجعلون له زوجة وصاحبة كما جعلوا له ولدا بأى معنى فسروا كونه ابنه فإنه يفسر الزوجة بذلك المعنى والأدلة بتنزيهه عن الصاحبة توجب تنزيهه عن الولد فإذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعداً لازما لهم وقد بسط هذا فى الرد على النصارى .

﴿ فصـــل ﴾

فى قول اليهود والنصارى فى الرب جل وعز

وهذا مما يبين أن مانزه الله نفسه ونفاه عنه بقوله (لم يلد ولم يولد) وبقوله (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وأنهم لكاذبون) وقوله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهن وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) يعم جميع الأنواع التى تذكر فى هذا الباب عن بعض الأمم كما أن مانفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتخاذات لااصطفاءه كما قال تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعـــذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير) .

قال السدي : قالوا إن الله أوحى إلى اسرائيل أن ولدك بكرى من الولد فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى مناد أخرجوا كل مختون من بنى إسرائيل وقد قال تعالى (مااتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) وقال (وقل الحمدلله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) وقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يشفعون إلالمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) وقال (وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هوإله واحد فإياى فارهبون وله

مافى السموات والأرض وله الدين واصبا) إلى قوله (ويجعلون لما لايعلمون نصيبا) إلى قوله (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون) وقال (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أناثاً إنكم لتقولون قولا عظيما ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) .

وقال (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة أناثاً وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون اصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم) .

وقال (أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) إلى قوله (إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) وقال تعالى (وجعلوا له من عباده جزءا) .

قال بعض المفسرين : جزءاً أى نصيبا وبعضا ، وقال بعضهم جعلوا لله نصيبا من الولد ، وعن قتادة ومقاتل عدلا وكلا القولين صحيح فإنهم يجعلون له ولدا والولد يشبه أباه ولهذا قال (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً) أى البنات كما قال فى الآية الأخرى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى) فقد جعلوها للرحمن مثلا وجعلوا له من عباده جزءا فإن الولد جزء من الوالد كما تقدم .

قال صلى الله عليه وسلم « إنما فاطمة بضعة منى » وقوله (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال الكلبي نزلت فى الزنادقة قالوا إن الله وإبليس شريكان فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ، وأما قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) فقيل هو قولهم الملائكة بنات الله وسمى الملائكة جنا لاجتنانهم عن الأبصار وهو قول مجاهد وقتادة ، وقيل قالوا لحى من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس وهم بنات الله ، وقال الكلبي قالوا لعنهم الله ، بل بذور تخرج منها الملائكة وقوله (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال بعض المفسرين كالثعلبي وهم كفار العرب قالوا الملائكة والأصنام بنات الله واليهود قالوا عزير ابن الله .

﴿ فصل ﴾

فى عقائد العرب فى الرب وتحقيق عقائد النصارى فيه جل وعز

والذين كانوا يقولون من العرب أن الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة فقد نفاه عنه بامتناع الصاحبة وبامتناع أن يكون منه جزء فإنه صمد ، وقوله (ولم تكن له صاحبة) وهذا كما تقدم من أن الولادة لاتكون إلا من أصلين سواء فى ذلك تولد الأعيان التى تسمى الجواهر وتولد الأعراض والصفات بل ولا يكون تولد الأعيان إلا بانفصال جزء من الوالد فإذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد وقد علموا كلهم أن لاصاحبة له لامن الملائكة ولا من الجن ولا من الإنس فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة فلهذا احتج بذلك عليهم ، وما حكى عن بعض كفار العرب أنه صاهر الجن فهذا فيه نظر وذلك إن كان قد قيل فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة وكذلك ماقالته النصارى من إن المسيح ابن الله وما قاله طائفة من اليهود أن العزير ابن الله فإنه قد نفاه سبحانه بهذا وبهذا ،

فإن قيل : أما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم وأما الموجود فى كلام علمائهم وكتبهم فإنهم يقولون إن أقنوم الكلمة ويسمونها الابن تدرع المسيح أى اتخذه درعا كما يتدرع الإنسان قميصه فاللاهوت تدرع الناسوت ويقولون باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد ، قيل قصدهم أن الرب موجود حى عليم فالموجود هو الأب والعلم هو الابن والحياة هو روح القدس هذا قول كثير منهم ، ومنهم من يقول بل موجود عالم قادر ويقول العلم هو الكلمة وهو المتدرع والقدرة هى روح القدس فهم مشتركون فى أن المتدرع هو أقنوم الكلمة وهى الابن .

ثم اختلفوا فى التدرع واختلفوا هل هما جوهر أو جوهران ؟ وهل هما نسبة أو نسبتان ولهم فى الحلول والاتحاد كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه فإن مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينهم مايتعذر ضبطه فإن قولهم ليس مأخوذا عن كتاب منزل ولا نبى مرسل ولا هو موافق لعقول العقلاء فقالت اليعقوبية صار جوهرا واحدا وطبيعة واحدة وأقنوما واحدا كالماء فى اللبن ، وقالت النسطورية بل هما جوهران وطبيعتان ومشيئتان لكن حل اللاهوت فى الناسوت حلول الماء فى الظرف ، وقالت الملكانية بل هما جوهر واحد له مشيئتان وطبيعتان أو فعلان كالنار فى الحديد وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) هم اليعقوبية ، وفى قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله) هم الملكانية ، وقوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) هم النسطورية وليس بشىء بل الفرق الثلاث تقول المقالات التى حكاها الله عز وجل عن النصارى فكلهم يقولون إنه الله ويقولون أنه ابن الله وكذلك فى أماتهم التى هم متفقون عليها يقولون إله حق من إله حق ، وأما قوله ثالث ثلاثة فإنه قال تعالى (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) .

قال أبو الفرج ابن الجوزي في قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث

ثلاثة) قال المفسرون معنى الآية أن النصارى قالوا الإلهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم كل واحد منهم إله ، وذكر عن الزجاج الغلو مجاوزة القدر فى الظلم وغلو النصارى فى عيسى قول بعضهم هو الله وقول بعضهم هو ابن الله وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بما ذكروه من أن الكلمة هو الابن والفرق الثلاثة متفقة على ذلك وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه ، أحدها أنه ليس فى شى من كلام الأنبياء تسمية صفة الله ابناً لا كلامه ولا غيره فتسميتهم صفة الله ابناً تحريف لكلام الأنبياء عن مواضعه ، وما نقلوه عن المسيح من قولهم عمدا الناس باسم الأب والابن وروح القدس لم يرد بالابن صفة لله التى هى كلمته ولا بروح القدس حياته فإنه لايوجد فى كلام الأنبياء إرادة هذا المعنى كما قد بسط هذا فى الرد على النصارى ، الوجه الثانى أن هذه الكلمة التى هى الابن أهى صفة الله قائمة به أم هى جوهر قائم بنفسه ؟ فإن كانت صفته بطل مذهبهم من وجوه :

أحدها : أن الصفة لاتكون إلها يرزق ويخلق ويحيي ويميت والمسيح عندهم إله يخلق ويرزق ويحيي ويميت فإذا كان الذى تدرعه ليس بإله فهو أولى أن لايكون إلها ، الثانى : أن الصفة لاتقوم بغير الموصوف فلا تفارقه وإن قالوا نزل عليه كلام الله وقالوا إنه الكلمة أو غير ذلك فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الأنبياء الثالث : أن الصفة لاتتحد وتتدرع شيئا إلا مع الموصوف فيكون الأب نفسه هو المسيح والنصارى متفقون على أنه ليس هو الأب فإن قولهم متناقض ينقض بعضه بعضا يجعلونه إلها يخلق ويرزق ولا يجعلونه الأب الذى هو الإله ويقولون إله واحد وقد شبهه بعض متكلميهم كيحى بن عدى بالرجل الموصوف بأنه طبيب وحاسب وكاتب وله بكل صفة حكم فيقال هذا حق لكن قولهم ليس نظير هذا فإذا قلتم إن الرب موجود حى عالم وله بكل صفة حكم فمعلوم أن المتحد إن كان هو الذات المتصفة فالصفات كلها تابعة لها فإنه إذا تدرع زيد الطبيب الحاسب الكاتب

ذرعا كانت الصفات كلها قائمة به وإن كان المتدرع صفة دون صفة عاد المحذور، وإن قالوا المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين وهذا ممتنع فإن الصفات القـــائمة بموصوف واحد وهى لازمة له لا تفترق وصفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقى بخلاف صفات الرب تعالى .

الرابع : أن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله ولا شيئا من صفاته بل هو مخلوق بكلمة الله وسمى كلمة لأنه خلق بـكن من غير الحبل المعتاد كما قال تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال تعالى (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالتوراة والإنجيل وسائر كلام الله لم يكن كلام الله ولا شىء من صفاته خالقاً ولا ربا ولا إلهـــا فالنصارى إذا قالوا إن المسيح هو الخالق كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقه ومن جهة جعله هو نفس الصفة وإنما هو مخلوق بالكلمة ثم قولهم بالتثليث وأن الصفات ثلاث باطل وقولهم أيضاً بالحلول والاتحاد باطل فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه وغيرها .

فلو قالوا إن الرب له صفات قائمة به ولم يذكروا اتحادا ولا حلولا كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات وإن قالوا إن الصفات أعيان قائمة بنفسها فهذا مكابرة فهم يجمعون بين المتناقضين وأيضا فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل فإن صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حى عليم قدير والأقانيم عندهم التى جعلوها الصفات ليست إلا ثلاثة ولهذا تارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم واضطرابهم كثير .

فإن قولهم فى نفسه باطل ولا يضبطه عقل عاقل ولهذا يقال لو اجتمع

عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولا ، وأيضاً فكلمات الله كثيرة لانهاية لها كما قال سبحانه وتعالى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) وهذا قول جماهير الناس من المسلمين وغير المسلمين وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلما بمشيئته ،وقول من قال إنه لم يزل قادراً على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاما قائماً بذاته حادثا وقول من قال كلامه مخلوق فى غيره .

وأما من قال كلامه معناه شيء واحد قديم العين فهؤلاء منهم من يقول أنه أمور لا نهاية لها مع ذلك ومنهم من يقول بل هو معنى واحد ولكن العبارات عنه متعددة وهؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائما بغير الله إنما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة ويمتنع أن يكون المسيح شيئاً من تلك العبارات فلا يمتنع أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء وعلى قول الجمهور أشد امتناعا لأن كلمات الله كثيرة والمسيح ليس هو جميعها بل ولا مخلوقا بجميعها وإنما خلق بكلمة منها وليس هو عين تلك الكلمة فإن الكلمة صفة من الصفات والمسيح عين قائم بنفسه .

ثم يقال لهم : تسميتكم العلم والكلمة ولداوابنا تسمية باطلة باتفاق العلماء والعقلاء ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء قالوا لأن الذات يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام فلهذا سميت الكلمة ابنا ، قيل هذا باطل من وجوه : أحدها أن صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالنا .

وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته فيمتنع أن يوصف بالتولد إلا أن يدعى المدعى أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه وهى ابن له ومعلوم أن هذا من أبطل الأمور فى العقول واللغات فإن حياة الإنسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له لا يقال أنها متولدة عنه وأنها ابن

له ، وأيضا فيلزم أن تكون حياة الرب أيضاً ابنه ومتولدة وكذلك قدرته وإلا فما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات ، وثانيهما : أن هذا إن كان من باب تولد الجواهر والأعيان القائمة بنفسها فلا بد له من أصلين ولا بد أن يخرج من الأصل جزء .

وأما علمنا وقولنا فليس عينا قائماً بنفسه وإن كان صفة قائمة بموصوف وعرضاً قائماً فى محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضاً لا يتولد إلا عن أصلين ولا بد له من محل يتولد فيه والواحد منا لا يحدث له العلم والكلام إلا بمقدمات تتقدم على ذلك وتكون أصلا للفرع ويحصل العلم والكلام فى محل لم يكن حاصلا فيه قبل ذلك .

فإن قلتم : إن علم الرب كذلك لزم أن يصير عالما بالأشياء بعد أن لم يكن عالما بها وأن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلما وهذا مع أنه كفر عند جماهير الأمم من المسلمين والنصارى وغيرهم فهو باطل فى صريح العقل فإن الذات التى لا تكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها والله تعالى يمتنع عليه ان يكون متعلما من خلقه وكذلك الذات التى تكون عاجزة عن الكلام يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا أحد يجعلها قادرة والواحد منها لا يولد جميع علومه بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها فإذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى فلا يقول أحد من بنى آدم : إن الإنسان يولد علومه كلها ولا يقول أحد أنه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة بل الذى يقدر على النطق هو الذى أنطق كل شىء .

فإن قالوا إن الرب يولد بعض علمه وكلامه دون بعض بطل تسمية العلم الذى هو الكلمة مطلقاً الابن وصار لفظ الابن إنما يسمى به بعض علمه أو بعض كلامه وهم يدعون أن المسيح هو الكلمة وهو أقنوم العلم مطلقاً

وذلك ليس متولداً عنه كله ولا يسمى كله ابنا باتفاق العقلاء ، وثالثها :
أن يقال تسمية علم العالم وكلامه ولداً له لا يعرف فى شىء من اللغات المشهورة وهو باطل بالعقل فإن علمه وكلامه كقدرته وعلمه فإن جاز هذا جاز تسمية صفات الإنسان كلها الحادثة متولدات عنه له وتسميتها أبناءه ، ومن قال من أهل الكلام القدرية إن العلم الحاصل بالنظر متولد عنه فهو كقوله إن الشبع والرى متولد عن الأكل والشرب ثم لا يقول إن العلم ابنه وولده كما لا يقول إن الشبع والرى ابنه ولا ولده لأن هذا من باب تولد الأعراض والمعانى القائمة بالإنسان وتلك لا يقال إنها أولاده وأبناؤه ومن استعار فقال بنيات فكره فهو كما يقال بنيات الطريق ويقال ابن السبيل ويقال لطير الماء ابن ماء ، وهذه تسمية مقيدة قد عرف أنها ليس المراد بها ما هو المعقول من الأب والابن والوالد والولد ، وأيضا فكلام الأنبياء ليس فى شىء منه تسمية شىء من صفات الله ابنا فمن حمل شيئاً من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم وهذا مما يقر به علماء النصارى وماوجد عندهم من لفظ الابن فى حق المسيح وإسرائيل وغيرهما هو اسم للمخلوق لا لشىء من صفات الخالق والمراد به أنه مكرم معظم .

ورابعها : أن يقال فإذا قدر أن الأمر كذلك فالذى حصل للمسيح إن كان هو ماعلمه الله إياه من علمه وكلامه فهذا موجود لسائر النبيين فلا معنى لتخصيصه بكونه ابن الله وإن كان هو أن العلم والكلام إله اتحد به فيكون العلم والكلام جوهرا قائماً بنفسه فإن كان هو الأب فيكون المسيح هو الأب وإن كان العلم والكلام جوهرا آخر فيكون إلهان قائمان بأنفسهما فتبين فساد ما قالوه بكل وجه .

وخامسها : أن يقال من المعلوم عند الخاصة والعامة أن المعنى الذى خص به المسيح إنما هو أن خلق من غير أب فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه ، وبهذا ناظر نصارى نجران النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا إن لم يكن هو ابن الله فقل لنا فمن أبوه ؟ فعلم أن النصارى إنما ادعوا

فيه البنوة الحقيقية وأن ماذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب ليزيلوا به الشناعة التى لا يبلغها عاقل وإلا فليس فى جعله ابن الله وجه يختص به معقول فعلم أن النصارى جعلوه ابن الله وأن الله أحبل مريم والله هو أبوه وذلك لايكون إلا بإنزال جزء منه فيها وهو سبحانه الصمد ويلزمهم أن تكون مريم صاحبة وزوجة له ولهذا يتولونها كما أخبر الله عنهم وأى معنى ذكروه فى بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى وبين غيره ولا صار فيه معنى البنوة بل قالوا كما قال بعض مشركى العرب أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة وإذا قالوا اتخذه ابنا على سبيل الاصطفاء فهذا هو المعنى الفعلى وسيأتى إن شاء الله تعالى إبطاله . وقوله تعالى (وروح منه) ليس فيه أن بعض الله صار فى عيسى بل من لابتداء الغاية كما قال (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) وقال (وما بكم من نعمة فمن الله) وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين إن كان عينا قائما بنفسها فهو مملوك له ومن لابتداء الغاية كما قال تعالى (فأرسلنا إليها روحنا) وقال فى المسيح (وروح منه) وما كان صفة لايقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له كما يقال كلام الله وعلم الله وكما قال (نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمرا والمقدور قدرة والمرحوم به رحمة والمخلوق بالكلمة كلمة ، فإذا قيل فى المسيح أنه كلمة الله فالمراد به أنه خلق بكلمته ثم بقوله كن ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر وإلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به وكذلك إذا قيل عن المخلوق أنه أمر الله فالمراد أن الله كونه بأمره كقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقوله (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) فالرب تعالى أحد صمد لايجوز أن يتبعض ويتجزأ فيصير بعضه فى غيره سواء سمى ذلك روحا أوغيره فبطل مايتوهمه النصارى من كونه ابنا له وتبين أنه عبد من عباد الله وقد قيل منشأ ضلال القوم أنه

كان فى لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالأب وبالابن عن العبد المربى الذى يربه الله ويربيه فقال المسيح عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبده ورسوله المسيح ويؤمنوا بروح القدس جبريل فكانت هذه الأسماء لله ولرسوله الملكى ورسوله البشرى قال الله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وقد أخبر تعالى فى غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس وهو جبريل عند جمهور المفسرين كقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) .

فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل هذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى وغيرهم ودليل هذا قوله (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه الاسم الذى كان يحيى به الموتى ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه الإنجيل وقال تعالى (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) وقال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فما ينزله الله فى قلوب أنبيائه ماتحيا به قلوبهم من الإيمان الخالص يسميه روحا وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين والمسيح من أولى العزم فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والأنبياء ، وقال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) .

وقد ذكر الزجاج فى تأييده ثلاثة أوجه : أحدها : أنه أيده به لإظهار

أمره ودينه ، الثانى : لدفع بنى إسرائيل عنه إذ أرادوا قتله ، الثالث أنه أيد فى جميع أحواله .

ومما يبين ذلك أن لفظ الابن فى لغتهم ليس مختصا بالمسيح بل عندهم أن الله تعالى قال فى التوراة لإسرائيل : أنت ابنى بكرى والمسيح كان يقول أبى وأبيكم فيجعله أباللجميع ويسمى غيره ابنا له كما يسمى هو ابنا له فعلم أنه لااختصاص للمسيح بذلك ولكن النصارى يقولون هو ابنه بالطبع وغيره ابنه بالوضع فيفرقون فرقا لادليل عليه ثم قولهم هو ابن بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلا وسمعا مايبين بطلانه .

﴿ فصـــل ﴾

وأماما يقوله الفلاسفة القائلون بأن العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته وأنه صدر عنه عقل ثم عقل ثم عقل إلى تمام عشرة عقول تسعة أنفس وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر والنفس بمنزلة الأنثى فهؤلاء قولهم أفسد من قول مشركى العرب وأهل الكتاب عقلا وشرعا ، ودلالة القرآن على فساده أبلغ وذلك من وجوه :

أحدها : أن هؤلاء يقولون بقدم الأفلاك وقدم هذه الروحانيات التى يثبتونها ويسمونها المجردات والمفارقات والجواهر العقلية وأن ذلك لم يزل قديما أزليا وما كان قديما أزليا امتنع أن يكون مفعولا بوجه من الوجوه ولا يكون مفعولا إلاما كان حادثا وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء وعليها الأولون والآخرون من الفلاسفة وسائر الأمم ولهذا كان جماهير الأمم يقولون كل ممكن أن يوجد وأن لايوجد فلا يكون إلا حادثاً وإنما ادعى وجود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين كابن سينا ومن وافقه زعموا أن الفلك قديم معلول لعلة قديمة .

وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك وهم جمهورهم ومن كان قبل أرسطو فهؤلاء موافقون لأهل الملل ومن قال بقدم الفلك

كأرسطو وشيعته فإنما يثبتون له علة غائية يشتبه الفلك بها لايثبتون له علة فاعلة وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك كل ذلك قديم واجب بنفسه وإن كان له علة غائية ، وهؤلاء أكفر من هؤلاء المتأخرين لكن الغرض أن يعرفوا أن قول هؤلاء ليس قول أولئك .

الثانى : أن هؤلاء يقولون الرب واحد والواحد لايصدر عنه إلا واحد ويعنون بكونه واحداً أنه ليس له صفة ثبوتية أصلا ولا يعقل فيه معان متعددة لأن ذلك عندهم تركيب ولهذا يقولون لايكون فاعلا وقابلا لأن جهة الفعل غير جهة القبول وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب ومع هذا يقولون أنه عاقل ومعقول وعقل وعاشق ومعشوق وعشق ولذيذ وملتذ ولذة إلى غير ذلك من المعانى المتعددة . ويقولون إن كل واحد من هذه الصفات هى الصفة الأخرى والصفة هى الموصوف والعلم هو القدرة وهو الإرادة والعلم هو العالم وهو القادر ، ومن المتأخرين منهم من قال العلم هو المعلوم فإذا تصور العاقل أقوالهم حق التصور تبين له أن هذا الواحد الذى أثبتوه لايتصور وجوده إلا فى الأذهان لافى الأعيان وقد بسط الكلام عليه وبين فساد مايقولونه فى التوحيد والصفات وبين فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة فى مواضع غير هذا وإذا كان كذلك فالأصل الذى بنوا عليه قولهم أن الواحد لايصدر عنه إلا واحد أصل فاسد .

الثالث : أن يقال قولهم بصدور الأشياء مع مافيها من الكثرة والحدوث عن واحد بسيط فى غاية الفساد .

الرابع : أنه لايعلم فى العالم واحد بسيط صدر عنه شيء لاواحد ولا اثنان فهذه الدعوة الكلية لايعلم ثبوتها فى شيء أصلا .الخامس : أنهم يقولون صدر عنه واحد وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك فيقال إن كان الصادر عنه واحدا من كل وجه فلا يصدر عن هذا الواحد إلا واحد أيضا فيلزم أن يكون كل مافى العالم إنما هو واحد عن واحد فهو مكابرة وإن كان فى الصادر الأول

كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ليس واحدا من كل وجه فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد ، ولهذا اضطرب متأخروهم فأبو البركات صاحب المعتبر أبطل هذا القول ورده غاية الرد ، وابن رشد الحفيد زعم أن الفلك بما فيه صادر عن الأول ، والطوسى وزير الملاحدة يقرب من هذا فجعل الأول شرطا فى الثانى والثانى شرطا فى الثالث وهم مشتركون فى الضلال وهو إثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم تزل ولا تزال معه لكن مسبوقة بعدم وجعل الفلك أيضاً قديماً أزليا وهذا وحده فيه من مخالفة صريح المعقول والكفر بما جاءت به الرسل ما فيه كفاية فكيف إذا ضم إليه غير ذلك من أقاويلهم المخالفة للعقل والنقل .

الوجه السادس : أن الصوادر المعلومة فى العالم إنما تصدر عن اثنين وأما واحد وحده فلا يصدر عنه شيء كما تقدم التنبيه عليه فى المتولدات من الأعيان والأعراض وكل ما يذكرونه من صدور الحرارة عن الحار والبرودة عن البارد والشعاع عن الشمس وغير ذلك فإنما هو صدور إعراض ومع هذا فلابد لها من أصلين ، وأما صدور الأعيان عن غيرها فهذا لا يعلم إلا بالولادة المعروفة وتلك لا تكون إلا بانفصال جزء من الأصل وهذا الصدور والتولد والمعلولية التى يدعونها فى العقول والنفوس والأفلاك يقولون إنها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط فهذا من أبطل قول قيل فى الصدور والتولد لأن فيه صدور جوهر واحد وهذا لا يعقل وفيه صدوره من غير جزء منفصل من الأصل وهذا لا يعقل وهم غاية ما عندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض كالشعاع عن الشمس وحركة الخاتم عن حركة اليد وهذا تمثيل باطل لأن تلك ليست علة فاعلة وإنما هو شرط فقط والصادر هناك لم يكن عن أصل واحد بل عن أصلين والصادر عرض لا جوهر قائم بنفسه فتبين أن ما ذكره هؤلاء من التولد العقلى الذى يدعونه من أبعد الأمور عن التولد والصدور وهو أبعد من قول النصارى ومشركي العرب وهم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته .

وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه أنه متولد عنه وحينئذ فهم فى دعواهم إلهية العقول والنفوس والكواكب أكفر من هؤلاء ومن جعل من المنتسبين إلى الملل منهم هؤلاء هم الملكية فقوله فى جعل الملائكة متولدين عن شيء من قول العرب وعوام النصارى فإن أولئك أثبتوه ولادة حسية وكونه صمداً يبطلها لكن ما أثبتوه معقول وهؤلاء ادعوا تولدا عقليا باطلا من كل وجه أبطل مما ادعته النصارى من تولد الكلمة عن الذات فكان نفى ما ادعوه أولى من نفى ما ادعاه أولئك لأن المحال الذى يعلم امتناعه فى الخارج لا يمكن تصورة موجوداً فى الخارج فإنه يمتنع وجودة فى الخارج وذلك إنما يمكن إذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له فى الوجود الخارجى ما يشبهه كما إذا قدر مع الله إلها آخر وقدر أن له ولدا فإنه يشبه من له ولد من العباد ومن له شريك من العباد .

ثم يبين امتناع ذلك عليه فكل ما كان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة والولادة التى ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة أبعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التى ادعاها بعض مشركى العرب وعوام النصارى واليهود فكانت هذه الولادة العقلية أشد استحالة من تلك الولادة الحسية إذ الولادة الحسية تعقل فى الأعيان القائمة بنفسها وأما الولادة العقلية فلا تعقل فى الأعيان أصلا ، وأيضاً فأولئك أثبتوا ولادة من أصلين وهذا هو الولادة المعقولة وهؤلاء أثبتوا ولادة من أصل واحد وأولئك أثبتوا ولادة بانفصال جزء وهذا معقول وهؤلاء أثبتوا ولادة بدون ذلك وهو لا يعقل وأولئك أثبتوا ولادة قاسوها على ولادة الأعيان للأعيان وهؤلاء أثبتوا ولادة قاسوها على تولد الأعراض عن الأعيان فعلم أن قول أولئك أقرب إلى المعقول وهو باطل كما بين الله فساده وأنكره ، فقول هؤلاء أولى بالبطلان وهذا كما أن الله إذا كفر من أثبت مخلوقا يتخذ شفيعا معبوداً من دون الله فمن أثبت قديما دون الله يعبد ويتخذ شفيعاً كان أولى بالكفر ومن أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله فمن

أنكره مع قوله بقدم هذا العالم فهو أعظم كفرا عند الله وهذا كما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نهى أمته عن مشابهة فارس والروم النصارى .

فنهيه عن مشابهة اليونان المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم وإذا كان مادخل فى بعض المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس والروم مذموما عند الله ورسوله فما دخل من مشابهة اليونان والهند والترك المشركين وغيرهم من الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام من أهل الكتاب ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموما عند الله تعالى ، وأن يكون ذمه أعظم من ذاك ، فهؤلاء الأمم الذين ابتلى بهم أواخر المسلمين شر من الأمم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين وذلك لأن الإسلام كان أهله أعظم علما ودينا فإذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء غلبهم المسلمون لفضل علمهم ودينهم .

وأما هؤلاء المتأخرون المسلمون وإن كانوا أنقص من سلفهم فإنه يظهر رجحانهم على هؤلاء لعظم بعدهم عن الإسلام ولكن لما كثرت البدع من متأخرى المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء وليسوا عليهم دينهم وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان لأنهم إنما ابتلوا بسيوف هؤلاء وألسنة هؤلاء وكان فيهم من نقص الإيمان ، أورث ضعفاً فى العلم والجهاد كما كان كثير من العرب فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم فهذا هذا .

ومما يبين هذا أن مشركى العرب واليهود والنصارى يقولون إن الله خلق السموات والأرض بمشيئته وقدرته بل يقولون إنه خلق ذلك فى ستة أيام وهؤلاء المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد أن لم تكن فضلا عن أن يكون ذلك فى ستة أيام ثم يلبسون على المسلمين فيقولون العالم محدث يعنون بحدوثه أنه معلول علة قديمة فهو بمنزلة قولهم متولد عن الله لكن هو أمر لا حقيقة له ولا يعقل ، وأيضا فشركو العرب وأهل الكتاب يقرون بالملائكة وإن كان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين نوعا واحدا فمن

خرج منهم عن طاعة الله أسقطه وصار شيطانا وينكرون أن يكون إبليس كان أبا الجن وأن يكون الجن ينكحون ويولدون ويأكلون ويشربون فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هذا مع كفرهم هم خير من هؤلاء المتفلسفة فإن هؤلاء لاحقيقة الملائكة عندهم إلا مايثبتونه من العقول والنفوس أومن أعراض تقوم بالأجسام كالقوى الصالحة وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها فإن العرب كانت تثبت الجن وكذلك أكثر أهل الكتاب وهؤلاء لايثبتونها ويجعلون الشياطين القوى الفاسدة ، وأيضاً فشركو العرب مع أهل الكتاب يدعون الله ويقولون إنه يسمع دعاءهم ويجيبهم .

وهؤلاء عندهم لايعلم شيئا من جزئيات العالم ولا يسمع دعاء أحد ولا يجيب أحدا ولا يحدث فى العالم شيئا ولا سبب للحدوث عندهم إلا حركات الفلك والدعاء عندهم يؤثر لأنه تصرف النفس الناطقة فى هيولى العالم .

وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عزوجل : « شتمنى ابن آدم وماينبغى له ذلك وكذبنى ابن آدم وماينبغى له ذلك فأما شتمه إياى فقوله إنى اتخذت ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد وأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وهذا وإن كان متنا ولا قطعا لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا كما قال تعالى (ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا) إلى قوله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدآ تكاد السموات يتفطرن منه) فذكر هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الأولى فإن هؤلاء ينكرون الإعادة والابتداء أيضا فلا يقولون إن الله ابتدأ خلق السموات والأرض ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم .

وأما شتمهم إياه بقولهم اتخذ ولدا فهؤلاء هم عندهم الفلك كله لازم له

معلول له أعظم من لزوم الولد والده والوالد له اختيار وقدرة فى حدوث الولد منه ، وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة فى لزوم الفلك له بل ولا يمكنه أن يدفع لزومه عنه فالتولد الذى يثبتونه أبلغ من التولد الموجود فى الخلق ولا يقولون أنه اتخذ ولدا بقدرته فإنه لا يقدر عندهم على تغيير شىء من العالم بل ذلك لازم له لزوما حقيقته أنه لم يفعل شيئا بل ولا هو موجود وإن سموه علة ومعلولا فعند التحقيق لا يرجعون إلى شىء محصل فإن فى قولهم من التناقض والفساد أعظم مما فى قول النصارى .

وقد ذكر طائفة من أهل الكلام إن قولهم بالعلة والمعلول من جنس قول غيرهم بالوالد والولد وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم فى الذم وهذا تقصير عظيم بل أولئك خير من هؤلاء وهؤلاء إذا حققت مايقوله من هو أقربهم إلى الإسلام كابن رشد الحفيد وجدت غايته أن يكون الرب شرطا فى وجود العالم لا فاعلا له ، وكذلك من سلك مسلكهم من المدعين للتحقيق من ملاحدة الصوفية كابن عربى وابن سبعين حقيقة قولهم إن هذا العالم موجود واجب أزلى ليس له صانع غير نفسه وهم يقولون الوجود واحد وحقيقة قولهم أنه ليس فى الوجود خالق موجوداً آخر وكلامهم فى المعاد والنبوات شر من كلام اليهود والنصارى وعباد الأصنام فإن هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم فى العالم لا يخصون بعض الأصنام بالعبادة .

﴿ فصل ﴾

وقد احتج بسورة الإخلاص من أهل الكلام المحدث من يقول الرب تعالى جسم كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ، ومحمد بن كرام ، وغيرهما ومن ينفى ذلك يقول ليس بجسم ممن وافق جهم بن صفوان وأبا الهذيل العلاف ونحوهما فأولئك قالوا : هو صمد والصمد لا جوف له وهذا إنما يكون فى الأجسام المصمتة فإنها لا جوف لها كما فى الجبال والصخور ومايصنع من عواميد الحجارة فكما قيل : إن الملائكة صمد ولهذا قيل أنه لا يخرج منه شىء ولا يدخل فيه شىء ولا يأكل ولا يشرب ونحو ذلك ونفى هذا

لا يعقل إلا عمن هو جسم وقالوا أصل الصمد الاجتماع ومنه تصميد المال وهذا إنما يعقل فى الجسم المجتمع وأما النفاة فقالوا الصمد الذى لايجوز عليه التفرق والانقسام وكل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق والانقسام .

وقالوا أيضا الأحد الذى لايقبل التجزى والانقسام وكل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق والتجزى والانقسام ، وقالوا إذا قلتم هو جسم كان مركبا مؤلفا من الجواهر الفردة أومن المادة والصورة وما كان مركبا مؤلفا من غيره كان مفتقراً إليه وهو سبحانه صمد والصمد الغنى عما سواه فالمركب لايكون صمدا فيقال أما القول بأنه سبحانه مركب مؤلف من أجزاء وأنه يقبل التجزى والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعا وعقلا فإن هذا ينافى كونه صمدا كما تقدم وسواء أريد بذلك أنه كانت الأجزاء متفرقة ثم اجتمعت أوقيل أنها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض كما فى بدن الإنسان وغيره من الأجسام فإن الإنسان وإن كان لم يزل مجتمع الأعضاء لكن يمكن أن يفرق بين بعضه وبعض الله منزه عن ذلك .

ولهذا قدمنا أن كمال الصمدية له فإن هذا إنما يجوز على مايجوز أن يفنى بعضه أو يعدم وماقبل العدم لم يكن واجب الوجود بذاته ولاقديماً أزليا فإن ماوجب قدمه امتنع عدمه وكذلك صفاته التى لم يزل موصوفا بها وهى من لوازم ذاته فيمتنع أن يعدم اللازم إلا مع عدم الملزوم ولهذا قال من قال من السلف الصمد هو الدائم وهو الباقى بعد فناء خلقه فإن هذا من لوازم الصمدية إذ لوقبل العدم لم تكن صمديته لازمة له بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمدا ولا تنتفى عنه الصمديه إلا بجواز العدم عليه وذلك محال فلا يكون مستوجبا الصمدية إلا إذا كانت لازمة له وذلك ينافى عدمه وهو مستوجب للصمدية لم يصر صمدا بعد أن لم يكن تعالى وتقدس فإن ذلك يقتضى أنه كان متفرقا فجمع وأنه مفعول محدث مصنوع وهذه صفة مخلوقاته وأما الخالق القديم الذى يمتنع عليه أن يكون معدوما أومفعولا أومحتاجا إلى غيره بوجه من الوجوه فلا يجوز

عليه شيء من ذلك فعلم أنه لم يزل صمدا ولا يزال صمدا فلا يجوز أن يقال كان متفرقا فاجتمع ولا أنه يجوز أن يتفرق بل ولا أن يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء .

وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين سنيهم وبدعيهم وإن كان أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة كما أنه ليس فى طوائف المسلمين من يقول أنه مولود ووالد وإن كان هذا قد قاله بعض الكفار وقد قال المتفلسفة المنسوبون إلى الإسلام من التولد والتعليل ماهو شر من قول أولئك وأما إثبات الصفات له وأنه يرى فى الآخرة وأنه يتكلم بالقرآن وغيره وكلامه غير مخلوق فهذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف والخلاف فى ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة وكثير من الفلاسفة والباطنية ، وهؤلاء يقولون إن إثبات الصفات يوجب أن يكون جسما وليس بجسم فلا تثبت له الصفات قالوا لأن المعقول من الصفات أعراض قائمة بجسم لا تعقل صفته إلا كذلك قالوا والرؤية لا تعقل إلا مع المعاينة فالمعاينة لا تكون إلا إذا كان المرئى بجهة ولا يكون بجهة إلا ما كان جسما قالوا : ولأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسما فلا يكون الكلام المضاف إليه إلا مخلوقا منفصلا عنه ، وهذه المعانى مما ناظروا بها الإمام أحمد فى المحنة .

وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفى التجسيم أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث تلميذ حسين النجار وهو من أكابر المتكلمين فإن ابن أبى دؤاد كان قد جمع للإمام أحمد من أمكنه من متكلمى البصرة وبغداد وغيرهم ممن يقول أن القرآن مخلوق وهذا القول لم يكن مختصا بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس فإن كثيراً من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة وبشر المريسى لم يكن من المعتزلة بل فيهم نجارية ومنهم برغوث .

وفيهم ضرارية . وحفص الفرد الذى ناظر الشافعى كان من الضرارية أتباع ضرار بن عمرو . وفيهم مرجئة ومنهم بشر المريسى ، ومنهم جهمية محضة ، ومنهم معتزلة ، وابن أبى دؤاد لم يكن معتزليا بل كان جهميا ينفى الصفات والمعتزلة تنفى الصفات فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة فلما احتج عليه برغوث بأنه لو كان يتكلم ويقوم به الكلام لكان جسما وهذا منفى عنه .

وأحمد وأمثاله من السلف كانوا يعلمون أن هذه الألفاظ التى ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها إلى نفى ماأثبته الله تعالى رسوله ويثبتها قوم ليتوصلوا باثباتها إلى إثبات مانفاه الله ورسوله .

فالأول طريقة الجهمية من المعتزلة وغيرهم ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون أن قصدهم التنزيه ومقصودهم بذلك أن الله لايرى فى الآخرة وأنه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل خلق كلاما فى غيره وأنه ليس له علم يقوم به ولا قدرة ولا حياة ولا غير ذلك من الصفات .

قال الإمام أحمد فى خطبته فى الرد على الجهمية والزنادقة : الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون فى كتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله وفى الله وفى كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن الضالين .

والثانية طريقة هشام وأتباعه يحكى عنهم أنهم أثبتوا ماقد نزه الله نفسه

لله من اتصافه بالنقائص ومماثلته للمخلوقات ، فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بكتاب الله الذى قال فيه (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (المص كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) .

وقال تعالى (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) .

وقال (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله

وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

وقوله تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقوله تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) وقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) وقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل وبيان ما اختلف فيه الناس وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ورد ما يتنازعون فيه إلى الكتاب والسنة وإن من لم يتبع ذلك كان منافقاً وإن من اتبع الهدى الذى جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذلك حشر ضالا شقياً معذباً ، وأن الذين فارقوا دينهم قد برىء الله ورسوله منهم .

فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة المتبعين ما أنزل إليهم من ربهم وذلك أن ننظر فما وجدنا

الرب قد أثبته لنفسه فى كتابه أثبتناه وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه وكل لفظ وجد فى الكتاب والسنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ وكل لفظ وجد منفيا نفى ذلك اللفظ . وأما الألفاظ التى لاتوجد فى الكتاب والسنة بل ولا فى كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمـــة المسلمين لا إثباتها ولا نفيها .

وقد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لاتثبت ولا تنفى الا بعد الاستفسار عن معانيها فإن وجدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبتت وإن وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت وإن وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل أو نفى به حق وباطل أو كان مجملا يراد به حق أو باطل وصاحبه أراد به بعضها لكنه عند الإطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ماأراد وغير ماأراد فهذه الألفاظ لايطلق إثباتها ولا نفيها كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التى تدخل فى هذا المعنى فقل من تكلم بها نفيا أو إثباتا إلا وأدخل فيها باطلا وإن أراد بها حقاً والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل وكذب وقول على الله بلا علم .

وكذلك ذكر أحمد فى رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه ويقولون عليه بغير علم وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة ولا يخالف الكتاب والسنة إلا ماهو باطل لايصح بعقل ولا سمع .

ولهذا لما سئل أبو العباس بن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال : وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض فى الجوهر والأعراض وإنما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بإنكار ذلك ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين فإنهما لم يكونا قد أحدثا فى زمنه وإنما أنكر مايعنى بهما من المعانى

الباطلة فإن أول من أحدثها الجهمية والمعتزلة وقصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به وأنكرت الجهمية أسماءه أيضا .

وأول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسرى بواسط ، وقال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحايا كم فإنى مضح بالجعد بن درهم أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبحه ، وكلام السلف والأئمة فى ذم هذا الكلام وأهله مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا إذا ذكرت لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقهم لا على إطلاق الإثبات ولا على إطلاق النفى وأهل البدع بالعكس ابتدعوا ألفاظا ومعانى إما فى النفى وإما فى الإثبات وجعلوها هى الأصل المعقول المحكم الذى يجب اعتقاده والبناء عليه ثم نظروا فى الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التى لا ندرى ما أريد بها فجعلوا بدعهم أصلا محكما وما جاء به الرسول فرعا له ومشكلا إذا لم يوافقه. وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية جميع كتبهم توجد على هذا الطريق ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذى بعث الله به رسوله وبين السبيل المخالفة له وكذلك الحكم فى المسائل العلمية الفقهية ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك .

كل هذه الأمور قد دخل فيها ألفاظ ومعان محدثة وألفاظ ومعان مشتركة فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتب والحكمة أصلا فى جميع هذه الأمور ثم يرد ما تكلم فيه الناس إلى ذلك ويبين ما فى الألفاظ المجملة من

المعانى الموافقة للكتاب والسنة فتقبل وما فيها من المعانى المخالفة للكتاب والسنة فترد .

ولهذا كل طائفة أنكر عليها ما ابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى كما يوجد فى ألفاظ أهل الرأى والكلام والتصوف وأن يجوز أن يقال فى بعض الآيات أنه مشكل ومتشابه إذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة فإذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر وجاء نص آخر يظن أن ظاهره يخالف ذلك يقال فى هذا أنه يرد به المتشابه إلى المحكم أما إذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجز أن يجعل ما يضاد ذلك المعنى هو الأصل ويجعل ما فى القرآن والسنة مشكلا متشابها فلا يقبل مادل عليه نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها ولا يجوز أن يكون فى القرآن ما يخالف صريح العقل أو الحس إلا وفى القرآن بيان معناه فإن القرآن جعله الله شفاءا لما فى الصدور وبيانا للناس فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك .

لكن قد تخفى آثار الرسالة فى بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إما أن لا يعرفوا اللفظ وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه فحينئذ يصيرون فى جاهلية بسبب عدم نور النبوة ، ومن هاهنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعاً كالفتن التى تحدث بالسيف فالفتن القولية والعملية هى من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم كما قال مالك ابن أنس : إذا قل العلم ظهر الجفاء وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم .

ولهذا قال أحمد فى خطبته : الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة بقايا من أهل العلم فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة كما قال تعالى:(فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) فأهل الهدى

والفلاح هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون فى كل زمان ومكان وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للأنبياء بقى أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء .

فهؤلاء فى ضلال وجهل وشرك وشر لكن الله يقول (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل إليهم رسولا .

وقد رويت آثار متعددة فى أن من لم تبلغه الرسالة فى الدنيا فإنه يبعث إليه رسول يوم القيامة فى عرصات القيامة، وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين فإن الآخرة لا تكليف فيها وليس كما قال إنما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة والنار وإلا فهم فى قبورهم ممتحنون ومفتونون يقال لأحدهم من ربك ؟ وما دينك ومن نبيك ؟ وكذلك فى عرصات القيامة يقال ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ومن كان يعبد القمر القمر ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير الصورة التى رأوه فيها أول مرة ويقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، وفى رواية فيسألهم ويثبتهم وذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذى تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم فى فتنة القبر فإذا لم يتبعوه لكونه أتى فى غير الصورة التى يعرفون أتاهم حينئذ فى الصورة التى يعرفون فيكشف عن ساق فإذا رأوه خروا له سجدا إلا من كان منافقا فإنه يريد السجود فلا يستطيعه يبقى ظهره مثل الطبق ، وهذا المعنى مستفيض عن النبى صلى الله عليه وسلم فى عدة أحاديث ثابتة من حديث أبى هريرة . وأبى سعيد وقد أخرجاهما فى الصحيحين ومن حديث

جابر وقد رواه مسلم وفى حديث ابن مسعود وأبى موسى وهو معروف من رواية أحمد وغيره .

فدل ذلك على أن المحنة إنما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء وما قبل دار الجزاء دار امتحان وابتلاء فإذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا فى ظلمة البدع وحدثت البدع والفجور ووقع الشر بينهم كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى الثالثة سألته أن لا يهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها والبأس مشتق من البؤس قال تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لما نزل قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال أعوذ بوجهك (أو من تحت أرجلكم) قال أعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال هاتان أهون فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول فى هذه الحال وهم فيها فى جاهلية ولهذا قال الزهرى وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون فاجمعوا على أن كل دم أومال أوفرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية .

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية قوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية .

وهكذا مسائل النزاع التى تنازع فيها الأمة فى الأصول والفروع إذا لم

ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضا ولم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة فى خلافة عمر وعثمان يتنازعون فى بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضا ولا يعتدى عليه وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله .

وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم يظلمون الأمة ويعتدون عليهم إذا نازعوهم فى بعض مسائل الدين وكذلك سائر أهل الأهواء فإنهم يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها كما يفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منع حقه وعقوبته فالناس إذا خفى عليهم بعض ما بعث الله به الرسول إما عادلون وإما ظالمون فالعادل فيهم الذى يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره والظالم الذى يعتدى على غيره وهؤلاء يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضا كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله فى تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول وقالوا هذا غاية ما قدرنا عليه ، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ولا يعتدى عليه بقول ولا فعل مثل أن يدعى أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبديها ويذم من يخالفه مع أنه معذور .

وكان الذين امتحنوا أحمد وغيره من هؤلاء الجاهلين فابتدعوا كلاما متشابها نفوا به الحق فأجابهم أحمد لما ناظروه فى المحنة وذكروا الجسم ونحو ذلك وأجابهم بأنى أقول كما قال الله تعالى : (الله أحد الله الصمد)

وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث ليس على أحد أن يتكلم به البتة والمعنى الذى يراد به مجمل ولم تبينوا مرادكم حتى نوافقكم على المعنى الصحيح فقال ماأدرى ماتقولون لكن أقول: (الله أحـــد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) يقول ماأدرى ماتعنون بلفظ الجسم وأنا لاأوافقكم على إثبات لفظ ونفيه إذا لم يرد الكتاب والسنة بإثباته ولا نفيه إن لم يدر معناه الذى عناه المتكلم فإن عنى فى النفى أو الإثبات مايوافق الكتاب والسنة وافقناه وإن عنى مايخالف الكتاب والسنة فى النفى والإثبات لم نوافقه .

ولفظ الجسم والجوهر ونحوهما لم يأت فى كتاب ولا سنة ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسائر أئمة المسلمين التكلم بهما فى حق الله تعالى لابنفى ولا إثبات ، ولهذا قال أحمد فى رسالته إلى المتوكل لا أحب الكلام فى شىء من ذلك إلا ما كان فى كتاب الله أو فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوعن الصحابة والتابعين وأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود ، وذكر أيضا فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون ليس فيه كذا ولا كذا وهو كما قال فإن للفظ الجسم فى اللغة التى نزل بها القرآن معنى كما قال تعالى : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) وقال تعالى (وزاده بسطة فى العلم والجسم) .

قال ابن عباس : كان طالوت أعلم بنى إسرائيل بالحرب وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه والبسطة السعة ، قال ابن قتيبة هو من قولك بسطت الشىء إذا كان مجموعا ففتحته ووسعته قال بعضهم : والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة إذ العادة أن من كان أعظم جسما كان أكثر قوة فهذا لفظ الجسم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن .

قال الجوهرى قال أبو زيد الأنصارى : الجسم الجسد وكذلك الجسمان والجثمان وقال الأصمعي الجسم والجسمان والجسد والجثمان واحد وقال جماعة

جسم الإنسان يقال له الجسمان وقد جسم الشيء أي عظم فهو جسيم وجسام والجسام بالكسر جمع جسيم قال أبو عبيدة تجسمت فلانا من بين القوم أي اخترته كأنك قصدت جسمه كما تقول تأتيته أي قصدت أتيه وشخصه ، وأنشد أبو عبيدة :

تجسمته من بينهن بمرهف

وتجسمت الأرض إذا أخذت نحوها تريدها وتجسم من الجسم ، وقال ابن السكيت : تجسمت الأمر أي ركبت أجسمه وجسيمه أي معظمه قال وكذلك تجسمت الرمل والجبل أي ركبت أعظمه ، والأجسم الأضخم قال عامر بن الطفيل :

لقد علم الحي من عامر　　بأن لنا الذروة الاجسما

فهذا الجسم في لغة العرب ، وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم ولا للنفس الخارج من الإنسان جسم ولا لروحه المنفوخة فيه جسم ، ومعلوم أن الله سبحانه لايماثل شيئا من ذلك لا بدن الإنسان ولاغيره فلايوصف الله بشيء من خصائص المخلوقين ولايطلق عليه من الأسماء مايختص بصفات المخلوقين فلا يجوز أن يقال هو جسم ولا جسد (وأما أهل الكلام) فالجسم عندهم أعم من هذا وهم مختلفون في معناه اختلافا كثيرا عقليا واختلافا لفظيا اصطلاحيا فهم يقولون كل مايشار إليه إشارة حسية فهو جسم ثم اختلفوا بعد هذا فقال كثير منهم كل ما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة ، ثم منهم من قال : الجسم أقل مايكون جوهرا بشرط أن ينضم إليه غيره وقيل بل الجوهران والجواهر فصاعدا ، وقيل بل أربعة فصاعدا وقيل بل ستة وقيل بل ثمانية وقيل بل ستة عشر وقيل بل اثنان وثلاثون وهذا قول من يقول إن الأجسام كلها مركبة من الجواهر التي لاتنقسم .

وقال آخرون من أهل الفلسفة كل الاجسام مركبة من الهيولي والصورة لامن الجواهر الفردة .

وقال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام ليست مركبة لامن هذا ولامن هذا ، وهذا قول الهشامية والكلابية والضرارية وغيرهم من الطوائف الكبار لايقولون بالجوهر الفرد ولا بالمادة والصورة وآخرون يدعون إجماع المسلمين على إثبات الجوهر الفرد كاقال أبو المعالى وغيره : اتفق المسلمون على أن الأجسام تتناهى فى تجزئها وانقسامها حتى تصير أفراداً ومع هذا فقد شك هو فيه وكذلك شك فيه أبو الحسين البصرى ، وأبو عبد الله الرازى ومعلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لامن الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين ، وأول من قال ذلك فى الإسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة وهذا من الكلام الذى ذمه السلف وعابوه ولكن حاكى هذا الإجماع لما لم يعرف أصول الدين إلا في كتب الكلام ولم يجد إلا من يقول بذلك اعتقد هذا إجماع المسلمين والقول بالجوهر الفرد باطل والقول بالهيولى والصورة باطل ، وقد بسط الكلام على هذه المقالات فى موضع آخر .

وقال آخرون : الجسم هو القائم بنفسه وكل قائم بنفسه جسم وكل جسم فهو قائم بنفسه وهو مشار إليه واختلفوا فى الأجسام هل هى متماثلة أم لا على قولين مشهورين ، وإذا عرف ذلك فمن قال إنه جسم وأراد أنه مركب من الأجزاء فهذا قوله باطل وكذلك إن أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل إن الله ليس كمثله شىء فى شىء من صفاته فمن أثبت لله مثلا فى شىء من صفاته فهو مبطل ومن قال إنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل ومن قال ليس بجسم بمعنى أنه لايرى فى الآخرة ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من الصفات ولاترفع الأيدى إليه فى الدعاء ولاعرج بالرسول إليه ولايصعد إليه الكلم الطيب ولاتعرج الملائكة والروح إليه فهذا قول باطل .

وكذلك كل من نفى ما أثبته الله ورسوله وقال إن هذا تجسيم فنفيه

باطل وتسمية ذلك تجسيما تلبيس منه فإنه إن أراد أن هذا يقتضى أن يكون جسما مركبا من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أو أن هذا يقتضى أن يكون جسما والأجسام متماثلة قيل له أكثر العقلاء يخالفونك فى تماثل الأجسام المخلوقة وفى أنها مركبة فلا يقولون إن الهواء مثل الماء ولا أبدان الحيوان مثل الحديد والجبال فكيف يوافقونك على أن الرب يكون مماثلا لخلقه إذا أثبتوا له ماأثبت الكتاب والسنة والله قد نفى المماثلات فى بعض المخلوقات وكلاهما جسم كقوله : (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) مع أن كلاهما بشر فكيف يجوز أن يقال إذا كان لرب السموات علم وقدرة أنه يكون مماثلا لخلقه والله تعالى ليس كمثله شيء لافى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

ونكتة الأمر أن الجسم فى اعتقاد هـــذا النافى يستلزم مماثلة سائر الأجسام ويستلزم أن يكون مركبا من الجواهر الفردة أو من المـادة والصورة وأكثر العقلاء يخالفونه فى التلازم وهذا التلازم منتف باتفاق الفريقين وهو المطلوب فإذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفى عن الله شرعا وعقلا بقى بحثهم فى الجسم الاصطلاحى هل هو مستلزم لهذا المحذور ؟ وهو بحث عقلى كبحث الناس فى الأرض هل تبقى أو لاتبقى وهذا البحث العقلى لم يرتبط به دين المسلمين بل لم ينطق كتاب ولا سنة ولا أثر من السلف بلفظ الجسم فى حق الله لانفيا ولا إثباتا فليس لأحد أن يبتدع اسما مجملا يحتمل معانى مختلفة لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين ولو كان قد نطق باللغة العربية فكيف إذا أحدث للفظ معنى آخر .

والمعنى الذى يقصده إذا كان حقا عبر عنه بالعبارة التى لالبس فيها فإذا كان معتقده أن الأجسام متماثلة وأن الله ليس كمثله شيء وهو سبحانه لاسمى له ولا كفؤ له ولا ند له فهذه عبارات القرآن تؤدى هذا المعنى

بلاتلبيس ولا نزاع وإن كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة وأن كل ما يرى ويقوم به من الصفات فهو جسم فإن عليه أن يثبت ما أثبته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته كقوله (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وقوله (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقوله عليه السلام فى حديث الاستخارة « اللهم إنى أستخيرك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق » ويقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم ترون ربكم يوم القيامة عيانا كما ترون الشمس والقمر لاتضامون فى رؤيته » فشبه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئى كالمرئى .

فهذه عبارات الكتاب والسنة عن هـــذا المعنى الصحيح بلا تلبيس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة وأقوال الصحابة ، ثم بعد هذا من كان تبين له معنى من جهة العقل أنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله فلازم الحق حق لكن ذلك المعنى لابد أن يدل الشرع عليه فيثبته بالألفاظ الشرعية وإن قدر أن الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده وحينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس إليه وإن قدر أنه فى نفسه حق.

ومسألة تماثل الأجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام وكثير منهم يقول بهذا تارة وبهذا تارة وأكثر ذلك لأجل الألفاظ المجملة والمعانى المتشابهة وقد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

لكن المقصود هنا أنه لو قدر أن الإنسان تبين له أن الأجسام ليست متماثلة ولا مركبة لامن هذا ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع فى دين الإسلام قوله إن الله جسم ويناظر على المعنى الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة بل يكفيه إثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية ولو قد أنه تبين له أن الأجسام متماثلة وأن الجسم مركب لم يكن له أن يبتدع القول بهذا الاسم ويناظر على

معناه الذى اعتقده بعقله بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن إظهاره بعبارة لا إجمال فيها ولا تلبيس والذين يقولون إن الجسم مركب من الجواهر يدعى كثير منهم أنه كذلك فى لغة العرب لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا يريدون به أنه أكثر أجزاء منه ويقولون هذا جسيم أى كثير الأجزاء قال والتفضيل بصيغة أفعل إنما يكون لما يدل عليه الاسم فإذا قيل هذا أعلم وأحلم كان أكثر دالا على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم فلما قالوا أجسم لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب فمن قال جسم وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب .

قالوا : وهذه تخطئة فى اللفظ وإن كنا لا نكفره إذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف وقد نازعهم بعضهم فى قولهم هذا أجسم من هذا وقالوا ليس هذا اللفظ من لغة العرب كما يحكى عن أبى زيد فيقال له لا ريب إن العرب تقول هذا جسيم أى عظيم الجثة وهذا أجسم من هذا أى أعظم جثة لكن كون العرب تعتقد أن ذلك لكثرة الأجزاء التى هى الجواهر الفردة إنما يكون إذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون أن الجسم مركب من الجواهر الفردة والجوهر الفرد هو شىء قد بلغ من الصغر والحقارة إلى أنه لا يتميز يمينه من يساره .

ومعلوم أن أكثر العقلاء من بنى آدم لا يتصور الجوهر الفرد والذين يتصورنه أكثرهم لا يثبتونه والذين أثبتوه إنما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة فيمتنع أن يكون اللفظ الشائع فى اللغة التى ينطق بها خواصها وعوامها أرادوا به هذا .

وقد علم بالاضطرار أن أحدا من الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم ينطق بإثبات الجوهر الفرد ولا بما يدل على ثبوته عنده بل ولا العرب قبلهم ولا سائر الأمم الباقين على الفطرة ولا أتباع الرسل فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا لفظ جسم إلا لما كان مركبا مؤلفا ولو قلت لمن شئت من العرب الشمس والقمر

والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزى أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى إلا بعد كلفة .

ثم إذا تصوره قد يكذبه بفطرته ويقول كيف يمكن أن يكون شيء لا يتميز منه جانب عن جانب وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد فالفقهاء قاطبة تنكره وكذلك أهل الحديث والتصوف ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة بعض الأجسام إلى بعض كاستحالة العذرة رمادا والخنزير ملحا ، ثم تكلموا فى هذه الاستحالة هل تظهر أم لا تظهر ؟ .

والقائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم بل تلك الجواهر التى كانت فى الأول هى بعينها فى الثانى وإنما اختلاف التركيب ولهذا يتكلم بلفظ التركيب فى الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين ويقول إن الماء يفارق غيره فى التركيب فقط وكذلك القائلون بالجوهر الفرد عندهم إنا لم نشاهد قط أحداث الله لشيء من الأعيان القائمة بنفسها وأن جميع مايخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر والسحاب وغير ذلك إنما هو جمع الجواهر وتفريقها وتغيير صفاتها من حال إلى حال لا أنه يبدع شيئاً من الجواهر والأجسام القائمة بأنفسها وهذا القول أكثر العقلاء ينكره ويقول : هو مخالف للحس والعقل والشرع فضلا عن أن يكون الجسم فى لغة العرب مستلزما لهذا المعنى ، ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه وهو عرض قائم بغيره وقد يراد به الشيء الغليظ وهو القائم بنفسه فنقول هذا الثوب له جسم أى غلظ وقوله (وزاده بسطة فى العلم والجسم) قد يحتج به على هذا فإنه قرن الجسم بالعلم الذى هو مصدر فنقول المعنى زاده بسطة فى قدره لجمل قدر بدنه أكبر من بدن غيره فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر .

وكذلك قوله (تعجبك أجسامهم) أي صورهم القائمة بأبدانهم كما تقول

أعجبنى حسنه وجماله ولونه وبهاؤه فقد يراد صفة الأبدان وقد يراد نفس الأبدان وهم إذا قالوا هذا أجسم من هذا أرادوا به أغلظ وأعظم منه أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الأجزاء فهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر ببال أهل اللغة إلا من أخذ ذلك عمن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذى أحدث فى الإسلام بعد انقراض عصر الصحابة وأكثر التابعين فإن هذا لم يعرف فى الإسلام من تكلم به أو بمعناه إلا فى أواخر الدولة الأموية لما ظهر جهم بن صفوان والجعد بن درهم ثم ظهر فى المعتزلة .

فقد تبين أن من قال الجسم هو المؤلف المركب واعتقد أن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقلياً ينازعه فيه أكثر العقلاء من بنى آدم ولم ينقل عن أحد من السلف أنه وافقه عليه وجعل لفظ الجسم فى اصطلاحه يدل على معنى لايدل عليه اللفظ فى اللغة فقد غير معنى اللفظ فى اللغة وادعى معنى عقلياً فيه نزاع طويل وليس معه من الشرع مايوافق ماادعاه من معنى اللفظ ولا ماادعاه من المعنى العقلى فاللغة لاتدل على ماقال والشرع لايدل على ماقال والعقل لم يدل على مسميات الألفاظ وإنما يدل على المعنى المجرد وذلك فيه نزاع طويل ونحن نعلم بالاضطرار أن ذلك المعنى الذى وجب نفيه عن الله لا يحتاج نفيه إلى ماأحدثه هذا من دلالة اللفظ ولا ماادعاه من المعنى العقلى بل الذين جعلوا هذا عمدتهم فى تنزيه الرب على نفى مسمى الجسم لا يمكنهم أن ينزهوه عن شىء من النقائص البتة فإنهم إذا قالوا : هذا من صفات الأجسام فكل مايثبتونه هو أيضاً من صفات الأجسام مثل كونه حياً عليما قديراً بل كونه موجوداً قائماً بنفسه فإنهم لايعرفون هذا فى الشاهد إلا جسما .

فإذا قال المنازع أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا ثم هؤلاء لهم فى استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم هل علمه بالإجماع فقط أو علمه بالعقل أيضاً فيه قولان فمن قال إن ذلك لم نعلمه بالعقل

كأبي المعالى والرازى وغيرهما لم يبق معهم دليل عقلى ينزهون به الرب عن كثير من النقائص هذا إذا لم ينف إلا ما يجب نفيه عن الله مثل نفيه للنقائص فإنه يجب تنزيه الرب عنها وينفى عنه مماثلة المخلوقات فإنه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شىء من المخلوقات فى شىء من صفات الكمال الثابتة له .

وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله وقل هو الله أحد دلت على النوعين فقوله أحد من قوله لم يكن له كفوا أحد ينفى المماثلة والمشاركة ، وقوله صمد يتضمن جميع صفات الكمال فالنقائص جنسها منفى عن الله تعالى وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التى يجب تنزيه الرب عنها بخلاف ما يوصف به الرب ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعانى فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات فضلا عن أن يماثله فيه بل ما خلقه الله فى الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه فى الدنيا وإن اتفقا فى الاسم وكلاهما مخلوق .

قال ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء فقد أخبر الله أن فى الجنة لبناً وخمراً وعسلا وماء وحريراً وذهباً وفضة ، وتلك الحقائق ليست مثل هذه وكلاهما مخلوق فالخالق تعالى أبعد من مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق وقد سمى الله نفسه عليما حليما رءوفا رحيما سميعاً بصيراً عزيزاً ملكا جباراً متكبراً مؤمناً عظيما كريماً غنياً شكوراً كبيراً حفيظاً شهيداً حقاً وكيلا ولياً .

وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء فسمى الإنسان سميعاً بصيراً وسمى نبيه رءوفا رحيما وسمى بعض عباده ملكا وبعضهم شكوراً وبعضهم عظيما وبعضهم حليما وعليما وسائر ما ذكر من الأسماء مع العلم أنه ليس المسمى بهذه

الأسماء من المخلوقين مماثلا للخالق جل جلاله فى شيء من الأشياء وكذلك النزاع فى لفظ التحيز والجهة ونحو ذلك فمن الناس من يقول هو متحيز وهو فى جهة ، ومنهم من يقول ليس بمتحيز وليس فى جهة ، ومنهم من يقول هو فى جهة وليس بمتحيز ولفظ المتحيز يتناول الجسم والجوهر الفرد ولفظ الجوهر قد يراد به المتحيز وقد يراد به الجوهر الفرد .

ومن الفلاسفة من يدعى إثبات جواهر قائمة بأنفسها غير متحيزة ومتأخروا أهل الكلام كالشهرستانى والرازى والآمدى ونحوهم يقولون ليس فى العقل ما يحيل ذلك ولهذا كان من سلك سبيل هؤلاء وهو إنما يثبت حدوث العالم بحدوث الأجسام يقول بتقدير وجود جواهر عقلية فليس فى هذا الدليل مايدل على حدوثها ولهـــذا صار طائفة ممن خلط الكلام بالفلسفة إلى قدم الجواهر العقلية وحدوث الأجسام وأن السبب الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس وكان يقول بهذا بعض أعيان المصريين وكذلك الأرموى صاحب اللباب الذى أجاب عن شبهة الفلاسفة على دوام الفاعلية المتضمنة أنه لا بد للحدوث من سبب فأجاب بالجواب الباهر الذى أخذه من كلام الرازى فى المطالب العالية فإنه أجاب به وهو فى المطالب العالية يخلط كلام الفلاسفة بكلام المتكلمين وهو فى مسألة الحدوث والقدم جائز .

وهذا الجواب من أفسد الأجوبة فإنه يقال ما الموجب لحدوث تلك التصورات دائماً ثم إن النفس عندهم لا بد أن تكون متصلة بالجسم فيمتنع وجود نفس بدون جسم ، وأيضا فالذى علم بالاضطرار من دين الرسل أن كل ماسوى الله مخلوق محدث كان بعد أن لم يكن وأيضا فما تثبته الفلاسفة من الجواهر العقلية إنما يوجد فى الذهن لا فى الخارج وأما أكثر المتكلمين فقالوا انتفاء هذه معلوم بضرورة العقل .

وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع فبين أن ماتدعى

الفلاسفة إثباته من الجواهر العقلية التى هى العقل والنفس والمادة والصورة فلا حقيقة لها فى الخارج وإنما هى أمور معقولة فى الذهن يجردها العقل من الأمور المعينة كما يجرد العقل الكليات المشتركة بين الأصناف كالحيوانية الكلية والإنسانية الكلية والكليات إنما تكون كليات فى الأذهان لافى الأعيان ، ومن هؤلاء من يظن أنها تكون فى الخارج كليات وأن فى الخارج ماهيات كلية مقارنة للأعيان غير الموجودات المعينة وكذلك منهم من يثبت كليات مجردة عن الأعيان يسمونها المثل الأفلاطونية .

ومنهم من يثبت دهرا مجردا عن المتحرك والحركة ويثبت خلاءاً مجردا ليس هو متحيزا ولا قائما بمتحيز ويثبت هيولى مجردة عن جميع الصور ، والهيولى فى لغتهم بمعنى المحل يقال الفضة هيولى الخاتم والدرهم والخشب هيولى الكرسى أى هذا المحل الذى تصنع فيه هذه الصورة وهذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض ويدعون أن الجسم هيولى محل الصورة الجسمية وغير نفس الجسم القائم بنفسه وهذا غلط وإنما هذا يقدر فى النفس كما يقدر امتداد مجرد عن كل ممتد وعدد مجرد عن كل معدود ومقدار مجرد عن كل مقدر ، وهذه كلها أمور مقدرة فى الأذهان لاوجود لها فى الأعيان وقد اعترف بذلك من عادته نصر الفلاسفة من أهل النظر كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع ، فالجواهر العقلية التى يثبتها هؤلاء الفلاسفة يعلم بصريح العقل بعد التصور التام انتفاؤها فى الخارج وأما الملائكة الذين أخبر الله عنهم فهذه لايعرفها هؤلاء الفلاسفة أتباع أرسطو ولا يذكرونها بنفى ولا إثبات كما لايعرفون النبوات ولا يتكلمون عليها بنفى ولا إثبات .

إنما تكلم فى ذلك متأخروهم كابن سينا وأمثاله الذين أرادوا أن يجمعوا بين النبوات وبين الفلسفة فلبسوا ودلسوا وكذلك العلة الأولى التى يثبتونها لهذا العالم إنما أثبتوا علة غائية يتحرك الفلك للتشبه بها وتحريكها للفلك من

جنس تحريك الإمام المقتدى به المؤتم المقتدى إذا كان يحب أن يتشبه بإمامه ويقتدى بإمامه ، ولفظ الإله فى لغتهم يراد به المتبوع الإمام الذى يتشبه به فالفلك عندهم يتحرك للتشبه بالإله ولهذا جعلوا الفلسفة العليا والحكمة الأولى إنما هى التشبه بالإله على قدر الطاقة .

وكلام أرسطو فى علم ما بعد الطبيعة فى مقالة اللام التى هى منتهى فلسفته وفى غيرها كله يدور على هذا وتارة يشبه تحريكه للفلك بتحريك المعشوق للعاشق لكن التحريك هنا قد يكون لمحبة العاشق ذات المعشوق أولغرض يناله منه وحركة الفلك عندهم ليست كذلك بل يتحرك ليتشبه بالعلة الأولى فهو يحبها أى يحب التشبه بها لا يحب أن يعبدها ولا يحب شيئا يحصل منها ويشبه ذلك أرسطو بحركة النواميس لاتباعها أى اتباع الناموس قائمون بما فى الناموس ويقتدون به والناموس عندهم هى السياسة الكلية للمدائن التى وضعها لهم ذووالرأى والعقل لمصلحة دنياهم لئلا يتظالموا ولا تفسد دنياهم ومن عرف النبوات منهم يظن أن شرائع الأنبياء من جنس نواميسهم وأن المقصود بها مصلحة الدنيا بوضع قانون عدلى .

ولهذا أوجب ابن سينا وأمثاله النبوة وجعلوا النبوة لابد منها لأجل وضع هذا الناموس ، ولما كانت الحكمة العملية عندهم هى الخلقية والمنزلية والمدنية جعلوا ماجاءت به الرسل من العبادات والشرائع والأحكام هى جنس الحكمة الخلقية المنزلية والمدنية فإن القوم لايعرفون الله بل هم أبعد عن معرفته من كفار اليهود والنصارى بكثير وأرسطو المعلم الأول من أجهل الناس برب العالمين إلى الغاية لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبيعية وهذا بحر علمهم وله تفرغوا وفيه ضيعوا زمانهم .

وأما معرفة الله تعالى فحظهم منها مبخوس جدا وأما ملائكته وكتبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة ولم يتكلموا فيه لابنفى ولا إثبات وإنما يتكلم

فى ذلك متأخروهم الداخلون فى الملل وأما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركا وسحرا يعبدون الكواكب والأصنام ولهذا عظمت عناياتهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها وكانوا يبنون لها الهياكل وكان آخر ملوكهم بطليموس صاحب المجسطى لما دخلت الروم فى النصرانية فجاء دين المسيح صلوات الله عليه وسلامه فأبطل ما كانوا عليه من الشرك .

ولهذا بدل من بدل دين المسيح فوضع دينا مركباً من دين الموحدين ودين المشركين فإن أولئك كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب ويصلون لها ويسجدون فجاء قسطنطين ملك النصارى ومن اتبعه فابتدعوا الصلاة إلى الشرق وجعلوا السجود إلى الشمس بدلا عن السجود لها وكان أولئك يعبدون الأصنام المجسدة التى لها ظل فجاءت النصارى وصورت تماثيل القداديس فى الكنائس وجعلوا الصور المرقومة فى الحيطان والسقوف بدل الصور المجسدة القائمة بأنفسها التى لها ظل وأرسطو كان وزير الإسكندر بن فيلبس المقدونى نسبة إلى مقدونية وهى جزيرة هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الذين يسمون المشائين وهى اليوم خراب أو غمرها الماء وهو الذى يؤرخ له النصارى واليهود التاريخ الرومى وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة فيظن من يعظم هؤلاء الفلاسفة أنه كان وزير ذى القرنين المذكور فى القرآن ليعظم بذلك قدره .

وهذا جهل فإن ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جدا وذو القرنين بنى سد يأجوج ومأجوج وهذا المقدونى ذهب إلى بلاد فارس لم يصل إلى بلاد الصين فضلا عن السد والملائكة التى أخبر الله ورسوله بها لا يحصى عددهم إلا الله ليسوا عشرة ولا تسعة وهم عباد الله أحياء ناطقون ينزلون إلى الأرض ويصعدون إلى السماء ولا يفعلون إلا بإذن ربهم كما أخبر الله عنهم بقوله : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم

بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) .

وقال تعالى (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وأمثال هذه النصوص ، وهؤلاء يدعون أن العقول قديمة أزلية وأن العقل الفعال هو رب كل ما تحت هذا الفلك والعقل الأول هو رب السموات والأرض وما بينهما ، والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بنى عبيد كأصحاب رسائل إخوان الصفا وغيرهم وكملاحدة المتصوفة مثل ابن عربى ، وابن سبعين وغيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع أول ماخلق الله العقل .

وفى كلام أبى حامد الغزالى فى الكتب المضنون بها على غير أهلها وغير ذلك من معانى هؤلاء قطعة كبيرة ويعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك والملكوت والجبروت ومراده بذلك الجسم والنفس والعقل فيأخذ هؤلاء وتلك العبارات الإسلامية ويودعونها معانى هؤلاء وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين فإذا سمعوها قبلوها ثم إذا عرفوا المعانى التى قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الإسلام وأن هذه معانى هؤلاء الملاحدة ليست هى المعانى التى عناها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإخوانه المرسلون مثل موسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين .

ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الالتباس وعدم المعرفة بحقيقة ماجاء به الرسول وما يقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم والعبادة والتصوف ومن ليس له غرض فى مخالفة محمد صلى الله عليه وسلم بل يحب اتباعه مطلقا ولو عرف أن هذا مخالف لما جاء به لم يقبله لكن لعدم كمال علمه بمعانى ما أخبر به الرسول ومقاصد هؤلاء يقبل هذا لاسيما إذا

كان المتكلم به ممن له نصيب وافر فى العلم والكلام والتصوف والزهد والفقه والعبادة .

ورأى الطالب أن هذا مرتبته فوق مرتبة الفقهاء الذين إنما يعرفون الشرع الظاهر وفوق مرتبة المحدث الذى غايته النقل لألفاظ لايعلم معانيها وكذلك المقرى والمفسر ، ورأى من يعظمه من أهل الكلام أما موافق لهم أو خائف منهم ، ورأى بحوث المتكلمين معهم فى مواضع كثيرة لم يأتوا بتحقيق تبيين فساد قولهم بل تارة يوافقونهم على أصول لهم تكون فاسدة وتارة يخالفونهم فى أمر قالته الفلاسفة ويكون حقا مثل مايرى كثير من المتكلمين يخالفهم فى أمور طبيعية ورياضية ظانا أنه ينصر الشرع ويكون الشرع موافقا لما علم بالعقل مثل استدارة الأفلاك فإنه لم يعلم بين السلف خلاف فى أنها مستديرة والآثار بذلك معروفة والكتاب والسنة قد دلا على ذلك وكذلك استحالة الأجسام بعضها إلى بعض هو مما اتفق عليه الفقهاء كما قال هؤلاء إلى أمور أخر لكن كثير من المتكلمين أو أكثرهم لاخبرة لهم بما دل عليه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان بل ينصر مقالات يظنها دين المسلمين بل إجماع المسلمين ولا يكون قد قالها أحد من بل الثابت السلف عن السلف مخالف لها .

فلما وقع بين المتكلمين تقصير وجهل كثير بتحقيق العلوم الشرعية وهم فى العقليات تارة يوافقون الفلاسفة على باطلهم وتارة يخالفونهم فى حقهم صارت المناظرات بينهم دولا وإن كان المتكلمون أصح مطلقا فى العقليات الإلهية والكلية كما أنهم أقرب إلى الشرعيات من الفلاسفة فإن الفلاسفة كلامهم فى الإلهيات والكليات العقلية كلام قاصر جدا وفيه تخليط كثير وإنما يتكلمون جيدا فى الأمور الحسية الطبيعية وفى كلياتها فكلامهم فيها فى الغالب جيد .

وأما الغيب الذى تخبر به الأنبياء والكليات العقلية التى تعم الموجودات

كلها وتقسيم الموجودات قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة فإن هذا لايكون إلا ممن أحاط بأنواع الموجودات وهم لايعرفون إلا الحساب وبعض لوازمها وهذا معرفة بقليل الموجودات جدا فإن مالا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدرا وصفة مما يشهدونه بكثير .

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ماعرفته الفلاسفة إذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار وهم يظنون أن لاموجود إلا ماعلموه هم والفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ماعرفوه وإن كان هذا لادليل عليه وليس لهم بهذا النفي علم فإن عدم العلم ليس علما بالعدم لكن نفيهم هذا كنفي الطبيب للجن لأنه ليس في صناعة الطب مايدل على ثبوت الجن وإلا فليس في علم الطب ماينفي وجود الجن .

وهكذا تجد من عرف نوعا من العلم وامتاز به على العامة الذين لايعرفونه فيبين بجهله نافيا لما لا يعلمه وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به قال تعالى : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل فإذا أثبتوا شيئا وصدقوا به كان حقا ولهذا كان التواتر مقبولا من جميع أجناس بني آدم لأنهم يخبرون عما شاهدوه وسمعوه ، وهذا أمر لايشترك الخلق العظيم في الغلط فيه ولا في تعمد الكذب فيه فإذا علم أنهم لم يتواطؤا عليه ولم يأخذه بعضهم عن بعض كما يؤخذ المذهب والآراء التي يتلقاها المتأخر عن المتقدم وقد علم أن هذا مما لا يغلط فيه عادة علم قطعا صدقهم فإن المخبر إما أن يتعمد الكذب وإما أن يغلط وكلاهما مأمون في المتواترات بخلاف مانفوه وكذبوا به فإن غالبهم أو كثيراً منهم ينفون مالا يعلمون ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه .

فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ماعرفه هؤلاء المتفلسفة إذا سمعوا ماأخبرت به الأنبياء من العرش والكرسي قالوا : العرش هو الفلك التاسع

والكرسي هو الثامن وقد تكلمنا على ذلك فى مسألة الإحاطة وبينا جهل من قال هذا عقلا وشرعا ، وإذا سمعهم يذكرون الملائكة ظن أنهم العقول والنفوس التى يثبتها المتفلسفة والقوى التى فى الأجسام وكذلك الجن والشياطين يظن أنهـــا أعراض قائمة بالنفوس حيث كان هذا مبلغه من العلم .

وكذلك يظن ماذكره ابن سينا وأمثاله من أن الغرائب فى هذا العالم سببها قوة فلكية أو طبيعية أو نفسانية ويجعل معجزات الأنبياء من باب القوى النفسانية وهى من جنس السحر لكن الساحر تصده الشر والنبى قصده الخير وهذا كله من الجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات وأنواعها ، ومن الجهل بما جاء به الرسول فلا يعرفون من العلوم الكلية ولا العلوم الإلهية إلا مايعرفه الفلاسفة المتقدمون وزيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام أو عن أهل الملة .

فلهذا صار كلام المتأخرين كابن سينا وأمثاله فى الإلهيات والكليات أجود من كلام سلفه ولهذا قربت فلسفة اليونان إلى أهل الإلحاد والمبتدعة من أهل الملل لما فيها من شوب الملة ولهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة فأخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل والنفس وعن المجوس النور والظلمة وسموهم السابق والتالى ، وكذلك الملاحدة المنتسبون إلى التصوف والتأله كابن سبعين وأمثاله سلكوا مسلكا جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة ، وقد بسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء فى غير هذا الموضع .

وإنما ذكروا هنا لأن أهل الكلام المحدث صاروا لعدم علمهم بما عليه السلف وأئمة السنة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة ولما وقعوا فيه من الكلاميات الباطلة يدخل بسببهم هؤلاء الفلاسفة فى الإسلام أمورا باطلة ويحصل بهم من الضلال والغي مالا يتسع هذا الموضع لذكره .

ولما أحدثت الجهمية محنتهم ودعوا الناس إليها وضرب أحمد بن حنبل فى سنة عشرين ومائتين كان مبدأ حدوث القرامطة الملاحدة الباطنية من ذلك الزمان فصارت البدع باب الإلحاد كما أن المعاصى بريد الكفر ولبسط هذا موضع آخر .

والمقصود هنا الكلام على لفظ التحيز والجهة وهؤلاء المتكلمون المتفلسفة صار بينهم نزاع فى الملائكة هل هى متحيزة أم لا ؟ فمن مال إلى الفلسفة ورأى أن الملائكة هى العقول والنفوس التى يثبتها الفلاسفة وأن تلك ليست متحيزة قال إن الملائكة ليست متحيزة لاسيما وطائفة من الفلاسفه لم تجعل عددها عشرة عقول وتسعة نفوس كما هو المشهور عن المشائين بل لادليل على نفى الزيادة ورأى النبوات قد أخبرت بكثرة الملائكة فأراد أن يثبت كثرتهم بطريقة فلسفية كما فعل ذلك أبو البركات صاحب المعتبر ، والرازى فى المطالب العالية وغيرهما .

وأما المتكلمون فإنهم يقولون أن كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو إما متحيز وإما قائم بمتحيز وكثير منهم يقول كل موجود إما متحيز وإما قائم بمتحيز ويقول لايعقل موجود إلا كذلك كما قال طوائف من أهل الكلام والنظر ثم الفلاسفة كابن سينا وأتباعه والشهرستانى والرازى وغيرهم لما أرادوا إثبات موجود ليس كذلك كان أكبر عمدتهم إثبات الكليات كالإنسانية المشتركة والحيوانية المشتركة وإذا كانت هذه لاتكون كليات إلا فى الذهن فلم ينازعهم الناس فى ذلك وإنما نازعوهم فى إثبات موجود خارج الذهن قائم بنفسه لايمكن الإحساس به بحال بل لايكون إلا معقولا وقالوا لهم : المعقول ما كان فى العقل وأما ما كان موجودا قائما بنفسه فلابد أن يمكن الإحساس به وإن لم نحس نحن به فى الدنيا كما لانحس بالجن والملائكة وغير ذلك فلابد أن يحس به غيرنا كالملائكة والجن وأن يحس به بعد الموت

أو فى الدار الآخرة أو يحس به بعض الناس دون بعض فى الدنيا كالأنبياء الذين رأوا الملائكة وسمعوا كلامهم .

وهذه الطريقة — وهو أن كل قائم بنفسه يمكن رؤيته — هى التى سلكها أئمة النظار كابن كلاب وغيره وسلكها ابن الزاغونى وغيره وأما من قال إن كل موجود يجوز رؤيته أو يجوز أن يحس بسائر الحواس الخمس كما يقوله الأشعرى وموافقوه كالقاضى أبى يعلى ، وأبى المعالى وغيرهما فهذه الطريقة مردودة عند جماهير العقلاء بل يقولون فسادها معلوم بالضرورة بعد التصور التام كما بسط فى موضعه ، وكذلك نزاعهم فى روح الإنسان التى تفارقه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون هى عين قائمة بنفسها ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها ولا جزأ من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن أو جزء من أجزاء البدن لكن هذا مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم ومخالف للأدلة .

وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام قال القاضى أبو بكر أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض وبهذا نقول إذا لم يعن بالروح النفس فإنه قال الروح الكائن فى الجسد ضربان: أحدهما الحياة القائمة به ، والآخر النفس والنفس ريح ينبث به والمراد بالنفس ما يخرج بنفس التنفس من أجزاء الهواء المتحلل من المسام وهذا قول الاسفرائينى وغيره .

وقال ابن فورك هو ما يجرى فى تجاويف الأعضاء وأبو المعالى خالف هؤلاء وأحسن فى مخالفتهم فقال إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتها لها فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار العادة ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمة السنة أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن وتنعم وتعذب ليست هي البدن ولا جزءا من أجزائه كالنفس المذكور .

ولما كان الإمام أحمد ممن نص على ذلك كما نص عليه غيره من الأئمة لم يختلف أصحابه فى ذلك لكن طائفة منهم كالقاضى أبى يعلى زعموا أنها جسم وأنها الهواء المتردد فى مخاريق البدن موافقة لأحد المعنيين الذين ذكرهما الباقلانى ، وهذه الأقوال لما كانت من أضعف الأقوال تسلط بها عليهم خلق كثير ، والمقصود هنا أن الذين قالوا أنها عين قائمة بنفسها غير البدن وأجزائه وأعراضه تنازعوا هل هى جسم متحيز على قولين كتنازعهم فى الملائكة ؟ .

فالمتكلمون منهم يقولون جسم والمتفلسفة يقولون جوهر عقلى ليس بجسم وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن ما تسميه المتفلسفة جواهر عقلية لا توجد إلا فى الذهن ، وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات هو مأخوذ من نفس الإنسان فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت وتتجرد عنه سموها مفارقة مجردة ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها مفارقات ومجردات لمفارقتها المادة التى هى عندهم الجسم وهذه المفارقات عندهم مالايكون جسما ولا قائما بجسم لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير والعقل لا تعلق له بالأجسام أصلا ، ولاريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التى تفارق والجمهور يسمون ذلك روحا وهذا جسما لكن لفظ الجسم فى اللغة ليس هو الجسم فى اصطلاح المتكلمين بل الجسم هو الجسد كما تقدم وهو الجسم الغليظ أو غلاظه والروح ليست مثل البدن فى الغلظ والكثافة ولذلك لا تسمى جسما فمن جعل الملائكة والأرواح ونحو ذلك جسما بالمعنى اللغوى فقد أصاب فى ذلك ورب العالمين أولى أن لا يكون جسما فإنه من المشهور فى اللغة الفرق بين الأرواح والأجسام .

وأما أهل الاصطلاح من المتكلمة والمتفلسفة فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك وهو ماأمكنت الإشارة الحسية إليه وما قيل أنه هنا وهناك وماقبل الأبعاد الثلاثة ونحو ذلك وكذلك المتحيز فى اصطلاح هؤلاء هو الجسم

ويدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته وقد تقدم معنى الجسم فى اللغة ، وأما المتحيز فقد قال تعالى (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله) .

وقال الجوهرى الحوز الجمع وكل من ضم إلى نفسه شيئاً فقد حازه حوزا وحيازة واحتازه أيضا والحوز والحيز السوق اللين وقد حاز الإبل يحوزها ويحيزها وحوز الإبل ساقها إلى الماء ، وقال الأصمعى إذا كانت الإبل بعيدة المرعى عن الماء فأول ليلة توجهها إلى الماء ليلة الحوز وتحوزت الحية وتحيزت تلوت يقال مالك تتحوز تحوز الحية وتتحيز تحيز الحية ، قال سيبويه : هو من تفعل من حزت الشيء ، قال القطامى :

تحيز منى خشية أن أضيفها كما انحازت الأفعى مخافة ضارب

يقول تتنحى عن هذه العجوز وتتأخر خشية أن أنزل عليها ضيفاً والحيز ما انضم إلى الدار من مرافقها وكل ناحية حيز وأصله من الواو والحيز تخفيف الحيز مثل هين وهين ولين ولين والجمع أحياز ، والحوزة الناحية وانحاز عنه انعدل وانحاز القوم تركوا مركزهم إلى آخر يقال للأولياء انحازوا عن العدو وحاصوا والأعداء انهزموا وولوا مدبرين وتجاوز الفريقان فى الحرب انحاز كل فريق عن الآخر .

فهذا المذكور عن أهل اللغة فى هذا اللفظ ومادته تقضى أن التحيز والانحياز والتحوز ونحو ذلك تضمن عدولا من محل إلى محل وهذا أخص من كونه يحوزه أمر موجود فهم يراعون فى معنى الحوز ذهابه من جهة إلى جهة ، ولهذا يقولون حزت المال وحزت الإبل وذلك يتضمن نقله من جهة إلى جهة فالشيء المستقر فى موضعه كالجبل والشمس والقمر لا يسمونه متحيزا وأعم من هذا أن يراد بالمتحيز ما يحيط به حيز موجود فيسمي كل ما أحاط به غيره أنه متحيز .

وعلى هذا فما بين السماء والأرض متحيز بل ما فى العالم متحيز الأسطح العالم الذى لا يحيط به شىء فإن ذلك ليس بمتحيز وكذلك العالم جملة ليس بمتحيز بهذا الاعتبار فإنه ليس فى عالم آخر أحاط به ، والمتكلمون يريدون بالمتحيز ما هو أعم من هذا والحيز عندهم أعم من المكان فالعالم كله فى حيز وليس هو فى مكان والمتحيز عندهم لا يعتبر فيه أنه يحوزه غيره ولا يكون له حيز وجودى بل كل ما أشير إليه وامتاز منه شىء عن شىء فهو متحيز عندهم .

ثم هم مختلفون بعد هذا فى المتحيز هل هو مركب من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة أوهو غير مركب لامن هذا ولا من هذا كما تقدم نزاعهم فى الجسم فالجسم عندهم متحيز ولا يخرج عنه إلا الجوهر الفرد عند من أثبته وهؤلاء يعتقد كثير منهم أو أكثرهم أن كل متحيز فهو مركب يقبل الانقسام إلى جزء لايتجزى بل يظن بعضهم أن هذا إجماع المسلمين وأكثرهم يقولون المتحيزات متماثلة فى الحد والحقيقة ومن كان معنى المتحيز عنده هذا فعليه أن ينزه الله تعالى أن يكون متحيزا بهذا الاعتبار ، وإذا قال الملائكة متحيزون بهذا الاعتبار أو الروح متحيزة بهذا الاعتبار نازعه فى ذلك جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم بل لا يعرف أحد من سلف الأمة وأئمتها يقول أن الملائكة متحيزة بهذا الاعتبار ولاقالوا لفظا يدل على هذا المعنى،وكذلك روح بنى آدم التى تفارقه بالموت لم يقل أحد من السلف أنها متحيزة بهذا الاعتبار ولا قال فيها لفظا يدل على هذا المعنى فإذا كان إثبات هذا التحيز للملائكة والروح بدعة فى الشرع وباطلا فى الشرع فلأن يكون ذلك بدعة وباطلا فى رب العالمين بطريق الأولى والأخرى .

ومن هنا يتبين أن عامة مايقوله المتفلسفة وهؤلاء المتكلمة فى نفوس بنى آدم وفى الملائكة باطلة فكيف بما يقولونه فى رب العالمين ، ولهذا توجد الكتب المصنفة التى يذكر فيها مقالات هؤلاء وهؤلاء فى هذه المسائل الكبار فى رب العالمين وفي ملائكته وفي أرواح بني آدم وفي المعاد وفي النبوات ليس

فيها قول يطابق العقل والشرع ولا يعرفون ماقاله السلف والأئمة فى هذا الباب ولا مادل عليه الكتاب والسنة .

فلهذا يغلب على فضلائهم الحيرة فإنهم إذا أنهوا النظر لم يصلوا إلى علم لأن ما نظروا فيه من كلام الطائفتين مشتمل على باطل من الجانبين ولهذا قال أبو عبدالله الرازى فى آخر عمره : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الإثبات (إليه يصعد الكلم الطيب) (والرحمن على العرش استوى) واقرأ فى النفى (ليس كمثله شىء) (ولا يحيطون به علما) ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى .

وأما من اعتقد أن المتحيز هو ما باين غيره فانحاز عنه وليس من شرطه أن يكون مركباً من الأجزاء الفردة ولا أنه يقبل التفريق والتقسيم فإذا قال إن الرب متحيز بهذا المعنى أى أنه بائن عن مخلوقاته فقد أراد معنى صحيحا لكن إطلاق هذه العبارة بدعة وفيها تلبيس فإن هذا الذى أراده ليس معنى المتحيز فى اللغة وهو اصطلاح له ولطائفته .

وفى المعنى المصطلح نزاع بين العقلاء فصار يحتمل معنى فاسدا يجب تنزيه الرب عنه وليس للإنسان أن يطلق لفظا يدل عند غيره على معنى فاسد ويفهم ذلك الغير ذلك المعنى الفاسد من غير بيان مراده بل هؤلاء المتكلمون الذين أرادوا بالمتحيز ما كان مؤلفا من أجزاء لا تقبل القسمة وهو ما كان قابلا للقسمة إذا قالوا إن كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو إما متحيز وإما قائم بمتحيز كان جماهير العقلاء يخالفونهم فى هذا التقسيم .

ولم يكن أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ولا سائر أئمة المسلمين موافقا لهم على هذا التقسيم فكيف إذا قال من قال منهم كل موجود فهو إما متحيز وإما قائم بمتحيز وأراد بالمتحيز

ماأراده هؤلاء فإن قوله حينئذ يكون أبعد عن الشرع والعقل من قول أولئك ولهذا طالبهم متأخروهم بالدليل على هذا الحصر وليس خطأ هؤلاء من جهة ماأثبته المتفلسفة من الجواهر العقلية فإن تلك قد علم بطلانها بصريح العقل أيضاً .

وما يقوله هؤلاء المتفلسفة فى النفس الناطقـــة من أنها لايشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ولا صعود ولا نزول وليس داخل العالم ولا خارجه وهو أيضاً كلام أبطل من كلام أولئك المتكلمين عند جماهير العقلاء ولا سيما من يقول منهم كابن سينا وأمثاله أنها لاتعرف شيئاً من الأمور الجزئية وإنما تعرف الأمور الكلية فإن هذا مكابرة ظاهرة فإنها تعرف بدنها وتعرف كل ماتراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده وتأمر به وتحبه وتكرهه إلى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها فكيف يقال أنها لاتعرف الأمور المعينة وإنما تعرف أموراً كلية وكذلك قولهم أن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف كتدبير الملك لمملكته من أفسد الكلام فإن الملك يدبر أمر مملكته فيأمر وينهى ولكن لايصرفهم هو بمشيئته وقدرته إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم والملك لايلتذ بلذة أحدهم ولا يتألم بتألمه وليس كذلك الروح والبدن بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف مالايعرف له نظير يقاس به .

ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلا لدخول شىء من الأجسام المشهودة فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات فى الأوعية فإن هذه إنما تلاقى السطح الداخل فى الأوعية لابطونها ولا ظهورها وإنما يلاقى الأوعية منها أطرافها دون أوساطها وليس كذلك الروح والبدن بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب فى بدن الآكل فإن ذلك له مجار معروفة وهو مستحيل إلى غير ذلك من صفاته ولاجريانها فى البدن كجريان الدم فإن الدم

يكون فى بعض البدن دون بعض ففى الجملة كل مايذكر من النظائر لايكون كل شىء منه متعلقاً بالآخر بخلاف الروح والبدن .

لكن هى مع هذا فى البدن قد ولجت فيه وتخرج منه وقت الموت وتسل منه شيئا فشيئا فتخرج من البدن شيئا فشيئا لا تفارقه كما يفارق الملك مدينته التى يدبرها والناس لما لم يشهدوا لها نظيرا عسر عليهم التعبير عن حقيقتها وهذا تنبيه لهم على رب العالمين حيث لم يعرفوا حقيقته ولا تصوروا كيف هو سبحانه وتعالى وأن مايضاف إليه من صفاته هو على مايليق به جل جلاله فإن الروح التى هى بعض عبيده توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان وتسجد تحت العرش وهى مع هذا فى بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية والإنسان فى نومه يحس بتصرفات روحه تصرفات تؤثر فى بدنه فهذا الصعود الذى توصف به الروح لايماثل صعود المشهودات فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية وحركتها إلى العلو حركة انتقال من مكان إلى مكان وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج وأنه كلم موسى فى الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة وأنه استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس مانشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر .

فإن نزول الروح وصعودها لايستلزم ذلك فكيف برب العالمين وكذلك الملائكة لهم صعود ونزول من هذا الجنس فلايجوز نفى ماأثبته الله ورسوله من الأسماء والصفات ولا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات لاسيما مالا نشاهده من المخلوقات فإن ماثبت لما لانشاهده من المخلوقات من الأسماء والصفات ليس مماثلا لما نشاهده منها فكيف برب العالمين الذى هو أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق لمخلوق وكل مخلوق فهو أشبه بالمخلوق الذى لايماثله من الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وهذا الذى نبهنا عليه مما يظهر به أن مايذكره صاحب المحصل وأمثاله من تقسيم الموجودات على رأى المتفلسفة والمتكلمة كله تقسيم غير حاصر وكل من الفريقين مقصر عن سلفه ، أما المتكلمون فلم يسلكوا من التقسيم المسلك الذى دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الأمة وكذلك هؤلاء المتفلسفة أتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين فإن أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم وكانوا يقولون إن فوق هذا العالم عالما آخر يصفونه ببعض ماوصف النبى صلى الله عليه وسلم الجنة وكانوا يثبتون معاد الأبدان كما يوجد هذا فى كلام سقراط وتاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة .

وقد ذكروا أن أول من قال منهم بقدم العالم أرسطو هذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ المركب والمؤلف والمنقسم ونحو ذلك قد صار كل من أراد نفى شىء مما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات عبر بها عن مقصوده فيتوهم من لايعرف مراده أن المراد تنزيه الرب الذى ورد به القرآن وهو إثبات أحديته وصمديته ويكون قد أدخل فى تلك الألفاظ مارآه هو منفيا وعبر عنه بتلك العبارة وضعاً له واصطلاحا اصطلح عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب وليس ذلك من لغة العرب التى نزل بها القرآن ولامن لغة أحد من الأمم ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الأحد والصمد والواحد ونحو ذلك من الأسماء الموجودة فى الكتاب والسنة .

ويجعل مانفاه من المعانى التى أثبتها الله ورسوله من تمام التوحيد واسم التوحيد اسم معظم جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فإذا جعل تلك المعانى التى نفاها من التوحيد ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول أنه يقول بالتوحيد الذى جاءت به الرسل ويسمى طائفته الموحدين كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم على نفى شىء من الصفات ويسمون ذلك توحيدا ويسمون علمهم علم التوحيد كما تسمى المعتزلة ومن وافقهم على نفى القدر عدلا ويسمون أنفسهم العدلية وأهل العدل .

ومثل هذه البدع كثيرة جدا يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراد الله ورسوله بتلك الألفاظ ولا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداء عن الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بل عن شبه حصلت لهم وأئمة لهم وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجة لهم وعمدة لهم ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول لايخالفون له وكثير منهم لايعرفون أن ماذكروه مخالف للرسول بل يظن أن هذا المعنى الذى أراده هو الذى أراده الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلهذا يحتاج المسلمون إلى شيئين : أحدهما معرفة ما أراد الله ورسوله بألفاظ الكتاب والسنة بأن يعرفوا لغة القرآن التى بها نزل وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر علماء المسلمين فى معانى تلك الألفاظ فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ .

وكانت معرفة الصحابة لمعانى القرآن أكمل من حفظهم لحروفه وقد بلغوا تلك المعانى إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه فإن المعانى العامة التى يحتاج إليها عموم المسلمين مثل معنى التوحيد ومعنى الواحد والأحد والإيمان والإسلام ونحو ذلك كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله من معرفتها ولا يحفظ القرآن كله إلا قليل منهم وإن كان شىء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر والقرآن مملوء من ذكر وصف الله بأنه أحد وواحد ومن ذكر أن إلهكم واحد ومن ذكر أنه لا إله إلا الله ونحو ذلك .

فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك فإن معرفته أصل الدين وهو أول مادعى الرسول إليه الخلق وهو أول ما يقاتلهم عليه وهو أول ماأمر رسله أن تأمر الناس به وقد تواتر عنه أنه أول مادعى الخلق إلى أن يقولوا لاإله إلا الله ولما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله وأنى رسول الله .

وفى الصحيحين أنه لما بعث معاذا إلى اليمن قال له إنك تأتى قوما أهل

كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب فقال لمعاذ ليكن أول ما تدعوهم إليه التوحيد ومع هذا كانوا من أهل الكتاب كانوا يهوداً فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن وهذا الذى أمر به معاذا موافق لقوله تعالى (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وفى الآية الأخرى (فإن تابوا أو أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) .

وهذا مطابق لقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان .

فالمقصود أن معرفة ماجاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة ثم معرفة ما قال الناس فى هذا الباب لينظر المعانى الموافقة للرسول والمعانى المخالفة لها والألفاظ نوعان نوع يوجد فى كلام الله ورسوله ونوع لايوجد فى كلام الله ورسوله فيعرف معنى الأول ويجعل ذلك المعنى هو الأصل ويعرف ما يعنيه الناس بالثانى ويرد إلى الأول هذا طريق أهل الهدى والسنة .

وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس يجعلون الألفاظ التى أحدثوها ومعانيها هى الأصل ويجعلون ماقاله الله ورسوله تبعاً لهم ويردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم ويقولون نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة يعنون

أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه ولهذا قال الإمام أحمد أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس وقال يجتنب المتكلم فى الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار فهى طريق الجهمية والمعتزلة ومن دخل فى التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة ، وأما حذاق الفلاسفة فيقولون إن المراد بخطاب الرسول إنما هو أن يخيل إلى الجمهور ما ينتفعون به من مصالح دنياهم وإن لم يكن ذلك مطابقا للحق قالوا وليس مقصود الرسول بيان الحق وتعريفه بل مقصوده أن يخيل إليهم ما يعتقدون ويجعلون خاصية النبوة قوة التخييل فهم يقولون أن الرسول لم يبين ولم يفهم بل ولم يقصد ذلك وهم متنازعون هل كان يعلم الأمور على ماهى عليه على قولين ؟ منهم من قال كان يعلمها لكن ما كان يمكنه بيانها وهؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف .

ومنهم من يقول بل ما كان يعرفها أو ما كان حاذقاً فى معرفتها وإنما كان يعرف الأمور العلمية وهؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبى لأن الأمور العملية أكمل من العلمية فهؤلاء يجعلون خبر الله وخبر الرسول إنما فيه التخييل وأولئك يقولون لم يقصد به التخييل ولكن قصد معنى يعرف بالتأويل ، وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق فى باب التوحيد فخاطب الجمهور بما خيل لهم كما يقولون أنه لو قال إن ربكم ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه ولا هو فوق العالم ولا كذا ولا كذا لنفرت قلوبهم عنه ، وقالوا هذا لا يعرف قالوا فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم رب يعبدونه وإن كان يعرف أن التجسيم باطل وهذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح واحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به

الرسول من الإثبات كما يوجد فى كلام غير واحد وتارة يقولون إنما عدل الرسول عن بيان الحق ليجتهدوا فى معرفة الحق من غير تعريفه ويجتهدوا فى تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك وهو اجتهادهم فى عقلياتهم وتأويلاتهم ولا يقولون أنه قصد به إفهام العامة الباطل كما يقول أولئك المتفلسفة .

وهذا قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم حتى ابن عقيل وأمثاله . وأبو حامد . وابن رشد الحفيد وأمثالهما يوجد فى كلامهم المعنى الأول وأبو حامد إنما ذم التأويل فى آخر عمره وصنف الجام العوام عن علم الكلام محافظة على هذا الأصل لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإبقاء الظواهر على ما هى عليه وإن كان هو يرى ماذكره فى كتبه المضنون بها أن النفى هو الثابت فى نفس الأمر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان والهدى كما وصف الله كتابه ونبيه حيث قال (هدى للمتقين) وقال (هذا بيان للناس) وقال (إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون) وقال (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقال (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) وأمثال ذلك .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » وقال تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وقال (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

وثم طائفة ثالثة كثرت فى المتأخرين المنتسبين إلى السنة يقولون مايتضمن أن الرسول لم يكن يعرف معانى ما أنزل عليه من القرآن كآيات الصفات بل لازم قولهم أيضا أنه كان يتكلم بأحاديث الصفات ولايعرف معناها .

وهؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين أن الوقف التام عند قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) وافقوا السلف وأحسنوا فى هذه الموافقة لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو تأويل معنى اللفظ وتفسيره أو هو التأويل الاصطلاحى الذى يجرى فى كلام كثير من متأخرى أهل الفقه والأصول وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به فهم قد سمعوا كلام هؤلاء وهؤلاء فصار لفظ التأويل عندهم هذا معناه ، ولما سمعوا قول الله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) ظنوا أن لفظ التأويل فى القرآن معناه هو لفظ التأويل فى كلام هؤلاء فلزم من ذلك أنه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص إلا الله لاجبريل ولا محمد ولا غيرهما بل كل من الرسولين على قولهم يتلو أشرف مافى القرآن من الأخبار عن الله بأسمائه وصفاته وهو لا يعرف معنى ذلك أصلا .

ثم كثير منهم يذمون ويبطلون تأويلات أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهما وهذا جيد لكن قد يقولون تجرى على ظواهرها وما يعلم تأويلها إلا الله ، فإن عنوا بظواهرها ما يظهر منها من المعانى كان هذا مناقضا لقولهم إن لها تأويلا يخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله وإن عنوا بظواهرها مجرد الألفاظ كان معنى كلامهم أنه يتكلم بهذه الألفاظ ولها باطن يخالف ماظهر منها وهو التأويل وذلك لا يعلمه إلا الله .

وفيهم من يريد بإجرائها على ظواهرها هذا المعنى وفيهم من يريد الأول وعادتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث وقد يريدون به الثانى فإنه أحيانا قد

يفسر النص بما يوافق ظاهره ويبين من هذا ليس من التأويل الثالث فيأتون ذلك ويكرهون تدبر النصوص والنظر فى معانيها أعنى النصوص التى يقولون أنه لم يعلم تأويلها إلا الله ثم هم فى هذه النصوص بحسب عقائدهم فإن كانوا من القدرية قالوا النصوص المثبتة لكون العبد فاعلا محكمة والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريد الكل ماوقع نصوص متشابهة لايعلم تأويلها إلا الله إذا كانوا ممن لايتأولها فإن عامة الطوائف منهم من يتأول مايخالف قوله ومنهم من لايتأوله وإن كانوا من الصفاتية المثبتين من الصفات التى زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخرى الكلابية كأبى المعالى فى آخر عمره وابن عقيل فى كثير من كلامه قالوا عن النصوص المتضمنة للصفات التى لاتعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لايعلم تأويلها إلا الله وكثير منهم يكون له قولان وحالان تارة يتأول ويوجب التأويل أو يجوزه وتارة يحرمه كما يوجد لأبى المعالى .

ولابن عقيل ولأمثالهما من اختلاف الأقوال ومن أثبت العلو بالعقل وجعله من الصفات العقلية كأبى محمد بن كلاب ، وأبى الحسن بن الزاغونى ومن وافقه وكالقاضى أبى يعلى فى آخر قوليه . وأبى محمد أثبتوا العلو وجعلوا الاستواء من الصفات الخبرية التى يقولون لايعلم تأويلها إلا الله وإن كانوا ممن يرى الفوقية والعلو أيضا من الصفات الخبرية كقول القاضى أبى بكر وأكثر الأشعرية .

وقول القاضى أبى يعلى فى أول قوليه وابن عقيل فى كثير من كلامه وأبى بكر البيهقى وأبى المعالى وغيرهم سلك مسلك أولئك وهذه الأمور مبسوطة فى موضعها .

والمقصود هنا أن كل طائفة تعتقد من الآراء ماينافض مادل عليه القرآن يجعلون تلك النصوص من المتشابهة ثم إن كانوا ممن يرى الوقف

عند قوله (إلا الله) قالوا لايعلم معناها إلا الله فيلزم أن لايكون محمد وجبريل ولا أحد علم معانى تلك الآيات والأخبار وإن رأوا الوقف على قوله (والراسخون فى العلم) جعلوا الراسخين يعلمون مايسمونه هم تأويلا ويقولون إن الرسول إنما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس فى معرفة الحق من غير جهته بعقولهم وأذهانهم ويجتهدون فى تخريج ألفاظه على اللغات العربية فيجتهدون فى معرفة غرائب اللغات التى يتمكنون بها من التأويل .

وهذا إن قالوا أنه قصد بالقرآن والحديث معنى حقا فى نفس الأمر وإن قالوا بقول الفلاسفة والباطنية الذين لايرون التأويل قالوا لم يقصد بهذه الألفاظ إلا مايفهمه العامة والجمهور وهو باطل فى نفس الأمر لكن أراد أن يخيل لهم ماينتفعون به ولم يمكنه أن يعرفهم الحق فإنهم كانوا ينفرون عنه ولايقبلونه وأما من قال من الباطنية الملاحدة وفلاسفتهم بالتأويل فإنه يتأول كل شىء مما أخبرت به الرسل من أمر الإيمان واليوم الآخر ثم يؤولون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية وأبى حامد فى الإحياء ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة وقال إنهم أسرفوا فى التأويل وأسرفت الحنابلة فى الجمود .

وذكر عن أحمد بن حنبل كلاما لم يقله أحمد فإنه لم يكن يعرف ماقاله أحمد ولاماقاله غيره من السلف فى هذا الباب ولا ماجاء به القرآن والحديث وقد سمع مضافا إلى الحنابلة مايقوله طائفة منهم ومن غيرهم من المالكية والشافعية وغيرهم فى الحرف والصوت وبعض الصفات مثل قولهم إن الأصوت المسموعة من القراء قديمة أزلية وأن الحروف المتعاقبة قديمة أزلية وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ويخلو منه العرش حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه وبعضهم تحته إلى غير ذلك من المنكرات فإنه مامن طائفة إلا وفى بعضهم من يقول أقوالا ظاهرها الفساد وهى التى يحفظها من ينفر عنهم ويشنع بها عليهم وإن كان أكثرهم ينكرها ويدفعها كما فى هذه المسائل المنكرة التى يقولها

بعض أصحاب أحمد ومالك والشافعى فإن جماهير هذه الطوائف ينكرها وأحمد وجمهور أصحابه منكرون لها .

وكلامهم فى إنكارها وردها كثير جدا لكن يوجد فى أهل الحديث مطلقا من الحنبلية وغيرهم من الغلط فى الإثبات أكثر مما يوجد فى أهل الكلام ويوجد فى أهل الكلام من الغلط فى النفى أكثر مما يوجد فى أهل الحديث لأن الحديث إنما جاء بإثبات الصفات ليس فيه شيء من النفى الذى انفرد به أهل الكلام .

والكلام المأخوذ عن الجهمية والمعتزلة مبنى على النفى المناقض لصرائح القرآن والحديث بل والعقل الصريح أيضا لكنهم يدعون أن العقل دل على النفى وقد ناقضهم طوائف من أهل الكلام وزادوا فى الإثبات كالهشامية والكرامية وغيرهم لكن النفى فى جنس الكلام المبتدع الذى ذمه السلف أكثر والمنتسبون إلى السنة من الحنبليين وغيرهم الذين جعلوا لفظ التأويل يعم القسمين يتمسكون بما يحدثونه فى كلام الأئمة فى المتشابه مثل قول أحمد فى رواية حنبل ولا كيف ولا معنى ظنوا أن مراده أنا لا نعرف معناها .

وكلام أحمد صريح بخلاف هذا فى غير موضع وقد بين أنه إنما ينكر تأويلات الجهمية ونحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله وصنف كتابه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما أنكرته من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله فأنكر عليهم تأويل القرآن على غير مراد الله ورسوله وهم إذا تأولوه يقولون معنى هذه الآية كذا والمكيفون يثبتون كيفية يقولون أنهم علموا كيفية ما أخبروا به من صفات الرب فنفى أحمد قول هؤلاء وهؤلاء قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية وقول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون معناه كذا وكذا وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه كما ذكره الخلال فى كتاب السنة وكما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده فى الكتب المصنفة فى ذلك فى غير هذا الموضع وبين أن لفظ التأويل

فى الآية إنما أريد به التأويل فى لغة القرآن كقوله تعالى : (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) .

وعن ابن عباس فى قوله (هل ينظرون إلا تأويله) تصديق ماوعد فى القرآن ، وعن قتادة تأويله ثوابه ، وعن مجاهد جزاءه وعن السدى عاقبته وعن ابن زيد حقيقته قال بعضهم تأويله مايؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار ، وقوله تعالى (بل كذبو بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) .

قال بعضهم تصديق ماوعدوا به من الوعيد والتأويل مايؤول إليه الأمر وعن الضحاك يعنى عاقبة ماوعد الله فى القرآن أنه كان من الوعيد والتأويل مايؤول إليه الأمر . وقال الثعلبى تفسيره وليس بشىء وقال الزجاج لم يكن معهم علم تأويله وقال يوسف الصديق عليه السلام (ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل) فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه وقال قبل هذا (لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) أى قبل أن يأتيكما التأويل والمعنى لايأتيكما طعام ترزقانه فى المنام كما قال أحدهما أنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا إلا نبأتكما بتأويله فى اليقظة قبل أن تأتيكما التأويل هذا قول أكثر المفسرين وهو الصواب .

وقال بعضهم لايأتيكما طعام ترزقانه تطعمانه وتأكلانه إلا نبأتكما بتأويله بتفسيره وألوانه أى طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم فقالوا هذا فعل العرافين والكهنة فقال ماأنا بكاهن وإنما ذلك العلم مما يعلمنى ربى وهذا القول ليس بشىء فإنه قال إلا نبأتكما بتأويله وقد قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا نبئنا بتأويله نطلبا منه تأويل مارأياه وأخبرهما بتأويل ذاك ولم يكن تأويله طعام فى اليقظة ولا فى القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه فى اليقظة فكيف يقول قولا عاما لايأتيكما طعام ترزقانه وهذا الإخبار

الطعام لايقدر عليه إلا الله والأنبياء يخبرون ببعض ذلك لايخبرون بكل هذا وأيضاً فصفة الطعام وقدره ليس تأويلا له وأيضاً فالله إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا .

قال يعقوب عليه السلام (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) وقال يوسف عليه السلام : (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) وقال (هذا تأويل رؤياى من قبل) ولما رأى الملك قال له الذى ادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون والملك قال ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين فهذا لفظ التأويل فى مواضع متعددة كلها بمعنى واحد وقال تعالى (فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وقال مجاهد وقتادة جزاء وثواباً ، وقال السدى وابن زيد وابن قتيبة والزجاج عاقبة ، وعن ابن زيد أيضاً تصديقاً كقوله (هذا تأويل رؤياى من قبل) وكل هذه الأقوال صحيحة والمعنى واحد وهذا تفسير السلف أجمعين ومنه قوله (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) فلما ذكر له ماذكر قال (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) .

وهذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله والمراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول إليه مافعلته من مصلحة أهل السفينة ومصلحة أبوى الغلام ومصلحة أهل الجدار ، وأما قول بعضهم ردكم إلى الله والرسول أحسن من تأويلكم فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم وهذا من جنس ماذكر من تلك الآية فى لفظ التأويل وهو تفسير له بالاصطلاح الحادث لابلغة العرب فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء كما يقول ابن جرير القول فى تأويل هذه الآية أى فى تفسيرها ولما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد وهو إمام التفسير جعل الوقف على قوله (والراسخون فى العلم) فإن الرسخين

فى العلم يعلمون تفسيره وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة .

وكان ابن قتيبة يميل إلى مذهب أحمد وإسحق وقد بسط الكلام على ذلك فى كتابه فى المشكل وغيره .

وأما متأخروا المفسرين كالثعلبى فيفرقون بين التفسير والتأويل قال فمعنى التفسير هو التنوير وكشف المغلق من المراد بلفظه والتأويل صرف الآية إلى معنى تحتمله يوافق ماقبلها ومابعدها وتكلم فى الفرق بينهما بكلام ليس هذا موضعه إلا أن التأويل الذى ذكره هو المعنى الثالث المتأخر ، وأبو الفرج ابن الجوزى يقول اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى واحد أم يختلفان ؟ فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنهما بمعنى وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين .

وذهب قوم يميلون إلى الفقه إلى اختلافهما فقالوا التفسير إخراج الشىء عن مقام الخفاء إلى مقام التجلى والتأويل نقل الكلام عن وضعه إلى مايحتاج فى إثباته إلى دليل لولاه ماترك ظاهر اللفظ فهو مأخوذ من قولك آل الشىء إلى كذا أى صار إليه ، فهؤلاء لايذكرون للتأويل إلا المعنى الأول والثانى وأما التأويل فى لغة القرآن فلا يذكرونه .

وقد عرف أن التأويل فى القرآن هو الموجود الذى يؤول إليه الكلام وإن كان ذلك موافقاً للمعنى الذى يظهر من اللفظ لايعرف فى القرآن لفظ التأويل مخالفاً لما يدل عليه اللفظ خلاف اصطلاح المتأخرين ، والكلام نوعان إنشاء وإخبار فالإنشاء الأمر والنهى والإجابة وتأويل الأمر والنهى نفس فعل المأمور ونفس ترك المحظور كما فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى يتأول القرآن فكأن هذا الكلام تأويل قوله : (فسبح بحمد ربك واستغفره) .

قال ابن عيينة السنة تأويل الأمر والنهى وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء وأهل اللغة فى نهيه عن اشتمال الصماء قال والفقهاء أعلم بالتأويل يقول هم أعلم بتأويل ما أمر الله به وما نهى عنه فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التي أمر بها وأعيان الأفعال المحظورة التى نهى عنها .

وتفسير كلامه ليس هو نفس مايوجد فى الخارج بل هو بيانه وشرحه وكشف معناه ، فالتفسير من جنس الكلام يفسر الكلام بكلام يوضحه وأما التأويل فهو فعل المأمور به وترك المنهى عنه ليس من جنس الكلام والنوع الثانى الخبر كإخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه وصفاته وإخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد وهذا هو التأويل المذكور فى قوله : (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) .

وهذا كقولهم (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) ومثله (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) وقوله (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) ونظائره متعددة فى القرآن وكذلك قوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) فإن ماوعدوا به فى القرآن لما يأتهم بعد وسوف يأتيهم .

فالتفسير هو الإحاطة بعلمه والتأويل هو نفس ماوعدوا به إذا أتاهم فهم كذبوا بالقرآن الذى لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله وقد يحيط الناس بعلمه ولما يأتهم تأويله فالرسول صلى الله عليه وسلم يحيط بعلم ماأنزل الله عليه وإن

كان تأويله لم يأت بعد ، وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) الآية قيل أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد قال تعالى (وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر) .

قال بعضهم موضع قرار وحقيقة ومنتهى ينتهى إليه فيبين حقه من باطله وصدقه من كذبه ، وقال مقاتل لكل خبر يخبر به الله وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير ، وقال ابن السائب لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه فى الدنيا فستعرفونه وما كان فى الآخرة فسوف يبدونكم وسوف تعلمون ، وقال الحسن لكل عمل جزاء فمن عمل عملا من الخير جوزى به فى الجنة ومن عمل عملا سوءاً جوزى به فى النار وسوف تعلمون ، ومعنى قول الحسن أن الأعمال قد وقع عليها الوعد والوعيد فالوعد والوعيد عليها هو النبأ الذى له المستقر فبين المعنى ولم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ ، وعن السدى قال لكل نبأ مستقر أى ميعاد وعدتكموه فسيأتيكم حتى تعرفونه ، وعن عطاء لكل نبأ مستقر تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه فإذا عمل ذنبه عاقبه أى لا يعاقب بالوعيد حتى يفعل الذنب الذى توعد عليه .

ومنه قول كثير من السلف فى آيات هذه ذهب تأويلها وهذه لم يأت تأويلها مثل ماروى أبو الأشهب عن الحسن والربيع عن أبى العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الآيه فقال ابن مسعود ليس هذا بزمانها قولوها ماقبلت منكم فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ثم قال إن القرآن نزل حيث نزل فمنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه آى وقع تأويلهن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ومنه آى وقع تأويلهن بعد النبى صلى الله عليه وسلم بيسير ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آى يقع تأويلهن فى آخر الزمان ومنه آى يقع تأويلهن يوم القيامة ماذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ولم

تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا فإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

فابن مسعود رضى الله عنه قد ذكر فى هذا الكلام تأويل الأمر وتأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر وما ذكر من الحساب والقيامة من باب الخبر وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به وتأويل الأمر هو فعل المأمور به فالآية التى مضى تأويلها قبل نزولها من باب الخبر يقع الشىء فيذكره الله كما ذكر ماذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له وهى وإن مضى تأويلها فهى عبرة ومعناها ثابت فى نظيرها ، ومن هذا قول ابن مسعود خمس قد مضين .

ومنه قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) وإذا تبين ذلك فالمتشابه من الأمر لابد من معرفة تأويله لأنه لابد من فعل المأمور وترك المحظور وذلك لايمكن إلا بعد العلم لكن ليس فى القرآن مايقتضى أن فى الأمر متشابها فإن قوله (وأخر متشابهات) قد يراد به من الخبر فالمتشابه من الخبر مثل ماأخبر به فى الجنة من اللحم واللبن والماء والحرير والذهب كان بين هذا وبين مافى الدنيا تشابه فى اللفظ والمعنى .

ومع هذا لحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا وتلك الحقيقة لانعلمها نحن فى الدنيا وقد قال الله تعالى (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » فهذا الذى وعد الله به عباده المؤمنين لاتعلمه نفس هو من التأويل الذى لايعلمه إلا الله وكذلك وقت الساعة لايعلمه إلا الله وأشراطها وكذلك كيفيات مايكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب لايعلم كيفيته إلا الله

فإنه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به فهو من التأويل المتشابه الذى لايعلمه إلا الله وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك فإن كيفيات ذلك لا يعلمها إلا الله كما قال ربيعة بن أبى عبد الرحمن ومالك بن أنس وسائر أهل العلم تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل الرحمن على العرش استوى كيف استوى فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة هذا لفظ مالك فأخبر أن الاستواء معلوم وهذا تفسير اللفظ وأخبر أن الكيف مجهول وهذا هو الكيفية التى استأثر الله بعلمها .

وكذلك سائر السلف كابن الماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما يبينون أن العباد لايعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فالكيفية هى التأويل الذى لايعلمه إلا الله وأما نفس المعنى الذى بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه فإنهم يفهمون معنى السمع ومعنى البصر وأن مفهوم هذا ليس مفهوم هذا ويعرفون الفرق بينهما وبين العليم والقدير وإن كانوا لا يعرفون كيفية سمعه وبصره بل الروح التى يعرفونها من حيث الجملة ولا يعرفون كيفيتها كذلك يعلمون معنى الاستواء على العرش وأنه يتضمن علو الرب على عرشه وارتفاعه عليه كما فسره بذلك السلف قبلهم .

وهذا معنى معروف من اللفظ لايحتمل فى اللغة غيره كما قد بسط فى موضعه ولهذا قال مالك الاستواء معلوم ومن قال الاستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه فإنهم يقولون استوى فقط ولا يصلونه بحرف وهذا له معنى ويقولون استوى على كذا وله معنى واستوى إلى كذا وله معنى واستوى مع كذا وله معنى فتتنوع معانيه بحسب صلاته وأما استوى على كذا فليس فى القرآن ولغة العرب المعروفة إلا بمعنى واحد قال تعالى : (فآزره فاستغلظ

فاستوى على سوقه) وقال (واستوت على الجودى) وقال (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) .

وقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم بدابة ليركبها فلما وضع رجله فى المغرز قال « بسم الله فلما استوى على ظهرها قال الحمد لله » وقال ابن عمر : أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج لما استوى على بعيره وهذا المعنى يتضمن شيئين علوه على مااستوى عليه واعتداله أيضا فلا يسمون المائل على شيء مستويا عليه ، ومنه حديث الخليل بن أحمد لما قال استووا وقوله :

ثم استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

هو من هذا الباب فإن المراد به بشر بن مروان واستواؤه عليها أى على كرسى ملكها لم يرد بذلك مجرد الاستيلاء بل استواء منه عليها إذ لو كان كذلك لكان عبد الملك الذى هو الخليفة قد استوى أيضا على العراق وعلى سائر مملكة الإسلام ولكان عمر بن الخطاب قد استوى على العراق وخراسان والشام ومصر وسائر مافتحه ولكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استوى على اليمن وغيرها مما فتحه .

ومعلوم أنه لم يوجد فى كلامهم استعمال الاستواء فى شيء من هذا وإنما قيل فيمن استوى بنفسه على بلد فإنه مستو على سرير ملكه كما يقال جلس فلان على السرير وقعد على التخت ومنه قوله (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) وقوله (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) .

وقول الزمخشرى وغيره استوى على كذا بمعنى ملك دعوى مجردة فليس لها شاهد فى كلام العرب ولو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلا فى استواء الله على العرش لأنه أخبر أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى

على العرش ، وقد أخبر أن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وحينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه فكيف يكون الاستواء عليه مؤخرا عن خلق السموات والأرض ، وأيضا فهو مالك لكل شيء مستول عليه لا يخص العرش بالاستواء وليس هذا كتخصيصه بالربوبية فى قوله رب العرش فإنه قد يخص لعظمته ولكن يجوز ذلك فى سائر المخلوقات فيقال رب العرش ورب كل شيء .

وأما الاستواء المختص بالعرش فلا يقال استوى على العرش وعلى كل شيء ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين فى كل شيء ولا وجد فى كتاب ولا سنة كما استعمل لفظ الربوبية فى العرش خاصة وفى كل شيء عامة وكذلك لفظ الخلق ونحوه من الألفاظ التى تخص وتعم كقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق) فالاستواء من الألفاظ المختصة بالعرش لا تضاف إلى غيره لا خصوصا ولا عموما وهذا مبسوط فى موضع آخر .

وإنما الغرض بيان صواب كلام السلف فى قولهم : الاستواء معلوم بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى كما ذكر ذلك ابن عربى المعافرى يبين هذا أن سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران ومناظرتهم للنبى صلى الله عليه وسلم فى أمر المسيح كما ذكر ذلك أهل التفسير وأهل السيرة وهو من المشهور بل المتواتر أنه من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى المباهلة المذكورة فى سورة آل عمران فأقروا بالجزية ولم يباهلوه ، وصدر آل عمران نزل بسبب ما جرى ولهذا عامتها فى أمر المسيح .

وذكروا أنهم احتجوا بما فى القرآن من لفظ أنا ونحن ونحو ذلك على أن الآلهة ثلاثة فاتبعوا المتشابه وتركوا المحكم الذى فى القرآن من أن الإله واحد ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فإنهم قصدوا بذلك الفتنة وهى فتنة القلوب بالكفر وابتغاء تأويل لفظ أنا ونحن وما يعلم تأويل هذه الأسماء إلا الله لأن

هذه الأسماء إنما تقال للواحد الذى له أعوان إما أن يكونوا شركاء له وإما أن يكونوا مماليك له ولهذا صارت متشابهة فإن الذى معه شركاء يقول فعلنا نحن كذا وأنا نفعل نحن كذا وهذا ممتنع فى حق الله تعالى والذى له مماليك ومطيعون يطيعونه كالملك يقول فعلنا كذا أى أنا فعلت بأهل ملكى وملكى وكل ما سوى الله مخلوق له مملوك له وهو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه وملائكته التى هى رسله فى خلقه وأمره وهو سبحانه أحق من قال أنا ونحن بهذا الاعتبار فإن ماسواه ليس له ملك تام ولا أمر مطاع طاعة تامة فهو المستحق أن يقول أنا ونحن والملوك لهم شبه بهذا فصار فيه أيضاً من المتشابه معنى آخر .

ولكن الذى ثبت لله من هذا الاختصاص لا يماثله فيه شىء ، وتأويل ذلك معرفة ملائكته وصفاتهم وأقـــدارهم وكيف يدبرهم أمر السماء والأرض ، وقد قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) فهذا التأويل لهذا المتشابه لا يعلمه إلا هو وإن علمنا تفسيره ومعناه لكن لم نعلم تأويله الواقع فى الخارج بخلاف قوله (الله الذى خلق) فإنها آية محكمة ليس فيها تشابه فإن هذا الاسم مختص بالله ليس مثل إنا ونحن التى تقال لمن له شركاء ولمن له أعوان يحتاج إليهم والله تعالى منزه عن هذا وهذا كما قال (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير) .

وقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً) فالمعنى الذى يراد به هذا فى حق المخلوقين لا يجوز أن يكون نظيره ثابتاً لله فلهذا صار متشابها وكذلك قوله (ثم استوى على العرش) فإنه قد قال (واستوت على الجودى) (واستوى على سوقه) وقال (فإذا استويت أنت ومن معك عن الفلك) وقال (لتستووا على ظهوره) .

فهذا الاستواء كله يتضمن حاجة المستوى إلى المستوى عليه وأنه لو عدم

من لجته لخر والله تعالى غنى عن العرش وعن كل شىء بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش وحملة العرش ، وقد روى أنهم إنما أطاقوا حمل العرش لما أمرهم أن يقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله .

فصار لفظ الاستواء متشابها يلزمه فى حق المخلوقين معانى ينزه الله عنها فنحن نعلم معناه وأنه العلو والاعتدال لكن لا نعلم الكيفية التى اختص بها الرب التى يكون بها مستوياً من غير افتقار منه إلى العرش بل مع حاجة العرش وكل شىء محتاج من كل وجه وأنا لم نعهد فى الموجودات ما يستوى مع غيره مع غناه عنه وحاجة ذلك المستوى عليه إلى المستوى فصار متشابها من هذا الوجه فإن بين اللفظين والمعنيين قدراً مشتركا وبينهما قدراً فارقاً هو مراد فى كل منهما ونحن لا نعرف الفارق الذى امتاز الرب به فصرنا نعرفه من وجه ونجهله من وجه وذلك هو تأويله والأول هو تفسيره .

وكذلك ما أخبر الله به فى الجنة من المطاعم والمشارب والملابس كاللبن والعسل والخمر والماء فإنا لا نعرف لبنا إلى مخلوقا من ماشية يخرج من بين فرث ودم وإذا بقى أياما يتغير طعمه ، ولا نعرف عسلا إلا من نحل تصنعه فى بيوت الشمع المسدسة فليس هو عسلا مصفى ولا نعرف حريراً إلا من دود القز وهو يبلى وقد علمنا أن ماوعد الله به عباده ليس مماثلا لهذه لا فى المادة ولا فى الصورة والحقيقة بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه وذلك هو من التأويل الذى لا نعلمه نحن .

قال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء لكن يقال فالملائكة قد تعلم هذا فيقال هى لا تعلم مالم يخلق بعد ولا تعلم كل مافى الجنة، وأيضا فمن النعم مالا تعرفه الملائكة والتأويل يتناول هذا كله وإذا قدرنا أنها لا تعرف مالا نعرفه فذاك لا يكون من المتشابه عندها ويكون من المتشابه عندنا فإن المتشابه قد يراد به ماهو صفة لازمة للآية وقد يراد به ما هو من الأمور النسبية فقد يكون متشابها عند هذا مالا يكون متشابها عند هذا

وكلام الإمام أحمد وغيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فإن أحمد ذكر فى رده على الجهمية أنها احتجت بثلاث آيات من المتشابه ، قوله (وهو الله فى السموات وفى الأرض) وقوله (ليس كمثله شيء) وقوله (لا تدركه الأبصار) .

وقد فسر أحمد قوله (وهو الله فى السموات وفى الأرض) فإذا كانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهة عندنا وهى متشابهة عند من احتج بها وكان عليه أن يردها هو إلى مايعرفه من المحكم ، وكذلك قال أحمد فى ترجمة كتابه الذى صنفه فى الحبس وهو الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ثم فسر أحمد تلك الآيات آية آية فبين أنها ليست متشابه عنه بل قد عرف معناها .

وعلى هذا فالراسخون فى العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذى هو تفسيره وأما التأويل الذى هو حقيقته الموجودة فى الخارج فتلك لا يعلمها إلا الله ولكن قد يقال هذا المتشابه الإضافى ليس هو المتشابه المذكور فى القرآن فإن ذلك قد أخبر الله أنه لا يعلم تأويله إلا الله وإنما هذا كما يشكل على كثير من الناس آيات لا يفهمون معناها وغيرهم من الناس يعرف معناها وعند هذا فقد يجاب بجوابين : أحدهما أن يكون فى الآية قراءتان قراءة من يقف على قوله إلا الله وقراءة من يقف عند قوله والراسخون فى العلم وكلتا القراءتين حق ويراد بالأولى المتشابه فى نفسه الذى استأثر الله بعلم تأويله ويراد بالثانية المتشابه الإضافى الذى يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله ومثل هذا يقع فى القرآن كقوله (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) ولتزول فيه قراءتان مشهورتان بالنفى والإثبات وكل قراءة لها معنى صحيح وكذلك القراءة المشهورة (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وقرأ طائفة من السلف (لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

وكلا القراءتين حق فإن الذى يتعدى حدود الله هو الظالم والتارك الإنكار عليه وقد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه وقد يجعل ظالم باعتبار ماترك من الإنكار الواجب وعلى هذا قوله (فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) فأنجى الله الناهين ، وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا (لم تعظون قوما) فالأكثرون على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين فأنكروا بحسب قدرتهم .

والجواب الثانى : القطع بأن المتشابه المذكور فى القرآن هو تشابهها فى نفسها وذاك الذى لايعلم تأويله إلا الله ، وأما الإضافى الموجود فى كلام من أراد به المتشابه الإضافى فمرادهم أنهم تكلموا فيما اشتبه معناه وأشكل معناه على بعض الناس وأن الجهمية استدلوا بما اشتبه عليهم وأشكل وإن لم يكن هو من المتشابه الذى لايعلم تأويله إلا الله ، وكثيرا مايشتبه على الرجل مالا يشتبه على غيره .

ويحتمل كلام الإمام أحمد أنه لم يرد إلا المتشابه فى نفسه الذى يلزمه التشابه لم يرد بشىء منه التشابه الإضافى وقال تأولته على غير تأويله أى غير تأويله الذى هو تأويله فى نفس الأمر وإن كان ذلك التأويل لايعلمه إلا الله وأهل العلم يعلمون أن المراد به ذلك التأويل فلا يبقى مشكلا عندهم محتملا لغيره ولهذا كان المتشابه فى الخبريات إما عن الله وإما عن الآخرة وتأويل هذا كله لايعلمه إلا الله بل المحكم من القرآن قد يقال له تأويل كما للمتشابه تأويل كما قال (ينظرون إلا تأويله) ومع هذا فذلك التأويل لايعلم وقته وكيفيته إلا الله وقد يقال بل التأويل للمتشابه لأنه فى الوعد والوعيد وكله متشابه وأيضا فلا يلزم فى كل آية ظنها بعض الناس متشابها أن تكون من المتشابه .

فقول أحمد احتجوا بثلاث آيات من المتشابه وقوله ما شكت فيه من

متشابه القرآن قد يقال أن هؤلاء أو أن أحمد جعل بعض ذلك من المتشابه وليس منه فإن قول الله تعالى (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) لم يرد به هنا الإحكام العام والتشابه العام الذى يشترك فيه جميع آيات القرآن وهو المذكور فى قوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) وفى قوله (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) .

فوصفه هنا كله بأنه متشابه أى متفق غير مختلف يصدق بعضه بعضا وهو عكس المتضاد المختلف المذكور فى قوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وقوله (إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك) فإن هذا التشابه يعم القرآن كما أن إحكام آياته تعمه كله وهنا قد قال (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فجعل بعضه محكما و بعضه متشابها فصار التشابه له معنيان وله معنى ثالث وهو الإضافى يقال قد اشتبه علينا هذا كقول بنى إسرائيل (إن البقر تشابه علينا) وإن كان فى نفسه متميزا منفصلا بعضه عن بعض وهذا من باب اشتباه الحق بالباطل كقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس » .

فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها فليست مشتبهة على جميع الناس بل على بعضهم بخلاف مالا يعلم تأويله إلا الله فإن الناس كلهم مشتركون فى عدم العلم بتأويله ومن هذا ما يروى عن المسيح عليه السلام أنه قال الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه . فهذا المشتبه على بعض الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه ويبينوا الفرق بين المشتبهين وهذا هو الذى أراده من جعل الراسخين يعلمون التأويل فإنه جعل المشتبهات فى القرآن من هذا الباب الذي يشتبه

على بعض الناس دون بعض ويكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه مايعرفه بعض الناس وهذا المعنى صحيح فى نفسه لاينكر .

ولا ريب أن الراسخين فى العلم يعلمون مااشتبه على غيرهم وقد يكون هذا قراءة فى الآية كما تقدم من أن يكون فيها قراءتان لكن لفظ التأويل على هذا يراد به التفسير ووجه ذلك أنهم يعلمون تاويله من حيث الجملة كما يعلمون تأويل المحكم فيعرفون الحساب والميزان والثواب والعقاب وغير ذلك مما أخبر الله به ورسوله معرفة مجملة فيكونون عالمين بالتأويل وهو مايقع فى الخارج على هذا الوجه ولا يعلمونه مفصلا إذ هم لايعرفون كيفيته وحقيقته إذ ذلك ليس مثل الذى علموه فى الدنيا وشاهدوه وعلى هذا يصح أن يقال علموا تأويله وهو معرفة تفسيره ويصح أن يقال لم يعلموا تأويله وكلا القراءتين حق .

وعلى قراءة النفى هل يقال أيضا أن المحكم له تأويل لايعلمون تفصيله فإن قوله ومايعلم تأويل ماتشابه منه إلا الله لايدل على أن غيره يعلم تأويل المحكم ، بل قد يقال أن من المحكم أيضا مالايعلم تأويله إلا الله وإنما خص المتشابه بالذكر لأن أولئك طلبوا علم تأويله أويقال بل المحكم يعلمون تأويله ولكن لايعلمون وقت تاويله ومكانه وصفته ، وقد قال كثير من السلف أن المحكم مايعمل به والمتشابه مايؤمن به ولايعمل به كما يجيء فى كثير من الآثار ونعمل بمحكمه ونؤمن بمتشابهه ، وكما جاء عن ابن مسعود وغيره فى قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قال يحللون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه .

وكلام السلف فى ذلك يدل على أن المتشابه أمر إضافى فقد يشتبه على هذا مالا يشتبه على هذا فعلى كل أحد أن يعمل بما استبان له ويكل مااشتبه عليه إلى الله كقول أبى بن كعب رضى الله عنه فى الحديث الذى رواه الثورى عن مغيرة وليس بالضبي عن أبي العالية قال قيل لأبي بن كعب أوصني فقال

اتخذ كتاب الله إماما أرض به قاضيا وحاكما هو الذى استخلف فيكم رسوله شفيع مطاع وشاهد لايتهم فيه خبر ماقبلكم وخبر مابينكم وذكر ماقبلكم وذكر مافيكم .

وقال سفيان عن رجل حدثناه عن ابن أبزى عن أبى قال: فما استبان لك فاعمل به وما شبه عليك فـآمن به وكله إلى عالمه فمنهم من قال المتشابه هو المنسوخ ومنهم من جعله الخبريات مطلقاً فعن قتادة والربيع والضحاك والسدى المحكم الناسخ الذى يعمل به والمتشابه المنسوخ يؤمن به ولا يعمل به وكذلك فى تفسير العوفى عن ابن عباس فقال محكمات القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ومايؤمن به ويعلى به والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه ومايؤمن به ولايعمل به .

أماالقول الأول فهووالله أعلم مأخوذ من قوله (فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته) فقابل بين المنسوخ وبين المحكم وهو سبحانه إنما أراد نسخ ماألقاه الشيطان لم يرد نسخ ماأنزله لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابها لأنه يشبه غيره فى التلاوة والنظم وأنه كلام الله وقرآن ومعجز وغير ذلك من المعانى مع أن معناه قد نسخ ومن جعل المتشابه كل مالايعمل به من المنسوخ والأقسام والأمثال فلأن ذلك متشابه ولم يؤمر الناس بتفصيله بل يكفيهم الإيمان المجمل به بخلاف المعمول به فإنه لابد فيه من العلم المفصل .

وهذا بيان لما يلزم كل الأمة فإنهم يلزمهم معرفة مايعمل به مفصلا ليعلموا به وماأخبروا به فليس عليهم معرفته بل عليهم الإيمان به وإن كان العلم به حسنا أو فرضا على الكفاية فليس فرضا على الأعيان بخلاف مايعمل به ففرض على كل إنسان معرفة ما يلزمه من العمل مفصلا وليس عليه معرفة العلميات مفصلا وقد روى عن مجاهد وعكرمة المحكم مافيه من الحلال والحرام وماسوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضا .

فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور فى قوله كتابا متشابها مثانى والحلال مخالف للحرام وهذا على قول مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله لكن تفسير المتشابه بهذا مع أن كل القرآن متشابه وهنا خص البعض به يستدل به على ضعف هذا القول وكذلك قوله يتبعون ماتشابه منه لو أريد بالمتشابه تصديق بعضه بعضاً لكان اتباع ذلك غير محذور وليس فى كونه يصدق بعضه بعضاً مايمنع ابتغاء تأويله وقد يحتج لهذا القول بقوله متشابهات فجعلها أنفسها متشابهات وهذا يقتضى أن بعضها يشبه بعضاً ليست مشابهة لغيرها ويجاب عن هذا بأن اللفظ ذا ذكر فى موضعين معينين صار من المتشابه كقوله إنا ونحن المذكور فى سبب نزول الآية .

وقد ذكر محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران ونزول الآية قال المحكم مالا يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا والمتشابه مااحتمل فى التأويل أوجها ومعنى هذا أن ذلك اللفظ المحكم لايكون تأويله فى الخارج إلا شيئا واحدا وأما المتشابه فيكون له تأويلات متعددة لكن لم يرد الله إلا واحدا منها .

وسياق الآية يدل على المراد وحينئذ فالراسخون فى العلم يعلمون المراد من هذا كما يعلمون المراد من المحكم لكن نفس التأويل الذى هو الحقيقة ووقت الحوادث ونحو ذلك لايعلمونه لامن هذا ولا من هذا وقد قيل أن نصارى نجران احتجوا بقوله كلمة الله وروح منه ولفظ كلمة الله يراد به الكلام ويراد به المخلوق بالكلام وروح منه يراد به ابتداء الغاية ويراد به التبعيض فعلى هذا إذا قيل تأويله لايعلمه إلا الله المراد به الحقيقة أى لايعلمون كيف خلق عيسى بالكلمة ولا كيف أرسل إليها روحه فتمثل لها بشراً سويا ونفخ فيها من روحه .

وفى الصحيح صحيح البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال

« إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »
والمقصود هنا أنه لايجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لامعنى له ولا يجوز أن يكون الرسول وجميع الأمة لايعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ سواء كان مع هذا تأويل القرآن لايعلمه الراسخون أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما ولا يعلمون الآخر وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لايعلم معنى المتشابه من القرآن وبين أن يقال الراسخون فى العلم يعلمون كان هذا الإثبات خيرا من ذلك النفى فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره .

وهذا مما يجب القطع به وليس معنا قاطع على أن الراسخين فى العلم لايعلمون تفسير المتشابه فإن السلف قد قال كثير منهم أنهم يعلمون تأويله منهم مجاهد مع جلالة قدره والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير ونقلوا ذلك عن ابن عباس وأنه قال أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقول أحمد فيما كتبه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله وقوله عن الجهمية أنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ثم تكلم على معناها دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه وأن المذموم تأويله على غير تأويله فأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم وهذا يقتضى أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده وهو التفسير فى لغة السلف .

ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف أن فى القرآن آيات لايعرف الرسول ولا غيره معناها بل يتلون لفظا لايعرفون معناه وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة منهم ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقى وغيرهما وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة وله فى ذلك مصنفات متعددة .

قال فيه صاحب كتاب التحديث بمناقب أهل الحديث وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء . والفضلاء أجودهم تصنيفا وأحسنهم ترصيفا له زهاء ثلاثمائة مصنف وكان يميل إلى مذهب أحمد وإسحق وكان معاصرا لإبراهيم الحربى ومحمد بن نصر المروزى وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة ويقولون كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لاخير فيه قلت ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فإنه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

وقد نقل عن ابن عباس أيضاً القول الآخر ونقل ذلك عن غيره من الصحابة وطائفة من التابعين ولم يذكر هؤلاء على قولهم نصا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصارت مسألة نزاع فترد إلى الله والرسول وأولئك احتجوا بأنه قرن ابتغاء الفتنة بابتغاء تأويله وبأن النبى صلى الله عليه وسلم ذم مبتغى المتشابه وقال إذا رأيتم الذين يتبعون ماتشابه منه فاحذروهم .

ولهذا ضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه صبيغ بن عسل لما سأله عن المتشابه ولأنه قال والراسخون فى العلم يقولون ، ولو كانت الواو واو عطف مفرد على مفرد لاواو استئناف التى تعطف جملة على جملة لقال ويقولون .

فأجاب الآخرون عن هذا بأن الله قال(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا) ثم قال (والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون) ثم قال (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) قالوا فهذا عطف مفرد على مفرد والفعل حال من المعطوف فقط وهو نظير قوله (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) قالوا ولأنه لو كان المراد مجرد الوصف بالإيمان لم يخص الراسخين بل قال والمؤمنون يقولون آمنا به فإن كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به فلما خص الراسخين

فى العلم بالذكر علم أنهم امتازوا بعلم تأويله فعلموه لأنهم عالمون وآمنوا به لأنهم يؤمنون وكان إيمانهم به من العلم أكمل فى الوصف وقد قال عقب ذلك وما يذكر إلا أولو الألباب .

وهذا يدل على أن هنا تذكرا يختص به أولو الألباب فإن كان ماثم الإيمان بالألفاظ فلا يذكر لما يدلهم على ما أريد بالمتشابه ، ونظير هذا قوله فى الآية الأخرى (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون ويؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) .

فلما وصفهم بالرسوخ فى العلم وأنهم يؤمنون قرن بهم المؤمنين فلو أريد هنا مجرد الإيمان لقال والراسخون فى العلم والمؤمنون يقولون آمنا به كما قال فى تلك الآية لما كان مراده مجرد الإخبار بالإيمان جمع بين الطائفتين قالوا : وأما الذم فإنما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح فى القرآن فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب وهى فتنتها به ، ويطلبون تأويله وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم . والاهتداء بل لأجل الفتنة وكذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة وهذا كمن يورد أسئلة إشكالات على كلام الغير ويقول ماذا أريد بكذا وغرضه التشكيك والطعن فيه ليس غرضه معرفة الحق ، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ولهذا يتبعون أى يطلبون المتشابه ويقصدونه دون المحكم مثل المستتبع للشىء الذى يتحراه ويقصده وهذا فعل من قصده الفتنة وأما من سأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبهة وهو عالم بالمحكم متبع له مؤمن بالتشابه لا يقصد فتنة فهذا لم يذمه الله .

وهكذا كان الصحابة يقولون رضى الله عنهم مثل الأثر المعروف الذى رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى حدثنا يزيد بن عبدربه حدثنا بقية حدثنا

عتبة بن أبي حكيم حدثني عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس يلتمس أن يجد فيه أمراً يخرج به على الناس أولئك شرار أمتهم يعمى الله عليهم سبل الهدى ورجل يقرؤه ليس فيه هوى ولا نية يفليه فلي الرأس فما تبين له منه عمل به وما اشتبه عليه وكله إلى الله ليتفقهن أولئك فقها مافقهه قوم قط حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه أو يفهمه إياها من قبل نفسه .

قال بقية استهدى ابن عيينة حديث عتبة هذا فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لابد أن يفقهه المتشابه فقها مافقهه قوم قط قالوا والدليل على ذلك أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أوحديث سأل عن ذلك كما سأله عمر فقال ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به وسأله أيضاً عمر مابالنا نقصر الصلاة وقد أمنا .

ولما نزل قوله (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق عليهم وقالوا أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم ولما نزل قوله (وإن تبدوا مافي أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله) شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك . ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم من نوقش الحساب عذب قالت عائشة ألم يقل الله (فسوف يحاسب حسابا يسيراً) قال إنما ذلك العرض قالوا والدليل على ماقلناه إجماع السلف فإنهم فسروا جميع القرآن .

وقال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عندها وتلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم

عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن إلا ماقد يشكل على بعضهم فيقف فيه لا لأن أحداً من الناس لا يعلمه لكن لأنه هو لم يعلمه ، وأيضاً فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقا ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبر ولا قال لا تدبروا المتشابه والتدبر بدون الفهم ممتنع ولو كان من القرآن مالا يتدبر لم يعرف فإن الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره .

وهذا أيضا مما يحتجون به ويقولون المتشابه أمر نسبي إضافي فقد يشتبه على هذا مالا يشتبه على غيره قالوا لأن الله أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور ولم يستثن منه شيئا عن هذا الوصف وهذا ممتنع بدون فهم المعنى قالوا ولأن من العظيم أن يقال إن الله أنزل على نبيه كلاما لم يكن يفهم معناه لا هو ولا جبريل بل وعلى قول هؤلاء كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم ولم يكن يعرف معنى ما يقوله وهذا لا يظن بأقل الناس .

وأيضا فالكلام إنما المقصود به الإفهام فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثا وباطلا والله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل والعبث فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام نزله على خلقه لا يريد به إفهامهم وهذا من أقوى حجج الملحدين .

وأيضا فما فى القرآن آية إلا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم فى معناها وبينوا ذلك وإذا قيل فقد يختلفون فى بعض ذلك قيل كما قد يختلفون فى آيات الأمر والنهى مما اتفق المسلمون على أن الراسخين فى العلم يعلمون معناها وهذا أيضا مما يدل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تفسير المتشابه فإن المتشابه قد يكون فى آيات الأمر والنهى كما يكون فى آيات الخبر وتلك مما اتفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها فكذلك الأخرى فإنه على قول النفاة لم يعلم معنى

المتشابه إلا الله لا ملك ولا رسول ولا عالم وهذا خلاف إجماع المسلمين فى متشابه الأمر والنهى .

وأيضا فلفظ التأويل يكون للمحكم كما يكون للمتشابه كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك وهم يعلمون معنى المحكم فكذلك معنى المتشابه وأى فضيلة فى المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه والمحكم أفضل منه وقد بين معناه لعباده فأى فضيلة فى المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزلو خطابا ولم يذكر فى القرآن آية تدل على وقت الساعة ونحن نعلم أن الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها وإنما النزاع فى كلام أنزله وأخبر أنه هدى وبيان وشفاء وأمر بتدبره .

ثم يقال أن منه مالا يعرف معناه إلا الله ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذى لا يعرف أحد معناه ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه .

ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران وقد احتجوا بقوله إنا ونحن وبقوله كلمة منه وروح منه وهذا قد اتفق المسلمون على معرفة معناه فكيف يقال أن المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة ولا الأنبياء ولا أحد من السلف وهو من كلام الله الذى أنزله إلينا وأمرنا أن نتدبره ونعقله وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء ونور وليس المراد من الكلام إلا معانيه ولولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له وقد قال الحسن ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما ذا أنزلت وماذا عنى بها ومن قال إن سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم فى ألم بحساب الجمل فهذا نقل باطل أما أولا فلأنه من رواية الكلبى .

وأما ثانيا : فهذا قد قيل أنهم قالوه فى أول مقدم النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وسورة آل عمران إنما نزل صدرها متأخرا لما قدم وفد نجران بالنقل

المستفيض المتواتر وفيها فرض الحج وإنما فرض سنة تسع أو عشر لم يفرض في أول الهجرة باتفاق المسلمين .

وأما ثالثا : فلأن حروف المعجم ودلالة الحروف على بقاء هذه الأمة ليس هو من تأويل القرآن الذي استأثر الله بعلمه بل إما أن يقال أنه ليس مما أراده الله بكلامه فلا يقال أنه انفرد بعلمه بل دعوى دلالة الحروف على ذلك باطل، وإما أن يقال بل يدل عليه وقد علم بعض الناس مايدل عليه وحينئذ فقد علم الناس ذلك أما دعوى دلالة القرآن على ذلك وأن أحدا لا يعلمه فهذا هو الباطل، وأيضا فإذا كانت الأمور العلمية التي أخبر الله بها في القرآن لا يعرفها الرسول كان هذا من أعظم قدح الملاحدة فيه وكان حجة لما يقولونه من أنه كان لا يعرف الأمور العلمية أو أنه كان يعرفها ولم يبينها بل هذا القول يقتضي أنه لم يكن يعلمها فإن مالا يعلمه إلا الله لا يعلمه النبي ولا غيره .

وبالجملة فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول إن في القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلا عن غيرهم وليس ذلك في آية معينة بل قد يشكل على هذا مايعرفه هذا وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ وتارة لاشتباه المعنى بغيره وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق وتارة لعدم التدبر التام وتارة لغير ذلك من الأسباب فيجب القطع بأن قوله (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) .

إن الصواب قول من يجعله معطوفا ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد أو يكون كلام القولين حقا وهي قراءتان والتأويل المنفي غير التأويل المثبت وإن كان الصواب هو قول من يجعلها واو استئناف فيكون التأويل المنفي علمه عن غير الله هو الكيفيات التي لا يعلمها غيره وهذا فيه نظر وابن عباس جاء عنه أنه قال إنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وجاء عنه أن الراسخين لا يعلمون تأويله .

وجاء عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لايعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لايعلمه إلا الله ومن ادعى علمه فهو كاذب وهذا القول يجمع القولين ويبين أن العلماء يعلمون من تفسيره مالا يعلمه غيرهم وأن فيه مالا يعلمه إلا الله فأما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عند قوله إلا الله وجعل التأويل بمعنى التفسير فهذا خطأ قطعا وأما التأويل بالمعنى الثالث وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح فهذا الاصطلاح لم يكن بعد عرف فى عهد الصحابة بل ولا التابعين بل ولا الأئمة الأربعة ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفا فى القرون الثلاثة بل ولا علمت أحدا فيهم خص لفظ التأويل بهذا .

ولكن لما صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعا فى عرف كثير من المتأخرين فظنوا أن التأويل فى الآية هذا معناه صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معانى تخالف مايفهم منه وفرقوا دينهم بعد ذلك وصاروا شيعا والمتشابه المذكور الذى كان سبب نزول الآية لايدل ظاهره على معنى فاسد وإنما الخطأ فى فهم السامع نعم قد يقال أن مجرد هذا الخطاب لايبين كمال المطلوب ولكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب وبين دلالته على نقيض المطلوب فهذا الثانى هو المنفى بل وليس فى القرآن مايدل على الباطل البتة كما قد بسط فى موضعه .

ولكن كثير من الناس يزعم أن لظاهر الآية معنى إما معنى يعتقده وإما معنى باطلا فيحتاج إلى تأويله ويكون ماقاله باطلا لاتدل الآية على معتقده ولا على المعنى الباطل وهذا كثير جدا وهؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيرا مايحتاج إلى التأويل المحدث وهو صرف اللفظ عن مدلوله إلى خلاف مدلوله .

ومما يحتج به من قال الراسخون فى العلم يعلمون التأويل ماثبت فى صحيح

البخاري وغيره عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له وقال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . فقد دعا له بعلم التأويل مطلقا وابن عباس فسر القرآن كله ، قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقفه عند كل آية وأسأله عنها وكان يقول إنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله .

وأيضا فالنقول متواترة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تكلم فى جميع معانى القرآن من الأمر والخبر فله من الكلام فى الأسماء والصفات والوعد والوعيد والقصص ومن الكلام فى الأمر والنهى والأحكام مايبين أنه كان يتكلم فى جميع معانى القرآن ، وايضاً قد قال ابن مسعود مامن آية فى كتاب الله إلا وأنا اعلم فيما ذا أنزلت ، وأيضا فإنهم متفقون على أن آيات الأحكام يعلم تأويلها وهى نحو خمسمائة آية وسائر القرآن خبر عن الله وأسمائه وصفاته أو عن اليوم الآخر والجنة والنار أو عن القصص وعاقبة أهل الإيمان وعاقبة أهل الكفر فإن كان هذا هو المتشابه الذى لايعلم معناه إلا الله فجمهور القرآن لايعرف أحد معناه لا الرسول ولا أحد من الأمة ومعلوم أن هذا مكابرة ظاهرة .

وأيضا فمعلوم أن العلم بتأويل الرؤيا أصعب من العلم بتأويل الكلام الذى يخبر به فإن دلالة الرؤيا على تأويلها دلالة خفية غامضة لايهتدى لها جمهور الناس بخلاف دلالة لفظ الكلام على معناه فإذا كان الله قد علم عباده تأويل الأحاديث التى يرونها فى المنام فلأن يعلمهم تأويل الكلام العربى المبين الذى ينزله على أنبيائه بطريق الأولى والأحرى قال يعقوب ليوسف (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) وقال يوسف (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) وقال (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) .

وأيضا فقد ذم الله الكفار بقوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة

مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وقال (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أما ذا كنتم تعلمون) وهذا ذم لمن كذب بما لم يحط بعلمه فما قاله الناس من الأقوال المختلفة فى تفسير القرآن وتأويله ليس لأحد أن يصدق بقول دون قول بلا علم ولا يكذب بشىء منها إلا أن يحيط بعلمه .

وهذا لا يمكن إلا إذا عرف الحق الذى أريد بالآية فيعلم أن ماسواه باطل فيكذب بالباطل الذى أحاط بعلمه وأما إذا لم يعرف معناها ولم يحط بشىء منها علما فلا يجوز له التكذيب بشىء منها مع أن الأقوال المتناقضة بعضها باطل قطعا ويكون حينئذ المكذب بالقرآن كالمكذب بالأقوال المتناقضة والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم .

وأيضا فإنه إن بنى على مايعتقده من أنه لا يعلم معانى الآيات الخبرية إلا الله لزمه أن يكذب كل من احتج بآية من القرآن خبرية على شىء من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تكلم فى تفسير ذلك وكذلك يلزم مثل ذلك فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإن قال المتشابه هو بعض الخبريات لزمه أن يبين فصلا يتبين به مايجوز أن يعلم معناه من آيات القرآن ومالا يجوز أن يعلم معناه بحيث لا يجوز أن يعلم معناه لا ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا أحد من الصحابة ولا غيرهم ومعلوم أنه لا يمكن أحدا ذكر حد فاصل بين مايجوز أن يعلم معناه بعض الناس وبين مالا يجوز أن يعلم معناه أحد ولو ذكر ماذكر انتقض عليه فعلم أن المتشابه ليس هو الذى لا يمكن أحد معرفة معناه وهذا دليل مستقل فى المسألة .

وأيضا فقوله لم يحيطوا بعلمه وكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما ذم لهم

على عدم الإحاطة مع التكذيب ولو كان الناس كلهم مشتركين فى عدم الإحاطة بعلم المتشابه لم يكن فى ذمهم بهذا الوصف فائدة ولكان الذم على مجرد التكذيب فإن هذا بمنزلة أن يقال أكذبتم بما لم تحيطوا به علما ولا يحيط به علما إلا الله ومن كذب بما لا يعلمه إلا الله كان أقرب إلى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس فلو لم يحط به علما الراسخون كان ترك هذا الوصف أقرب فى ذمهم من ذكره .

ويتبين هذا بوجه آخر هو دليل فى المسألة وهو أن الله ذم الزائغين بالجهل وسوء القصد فإنهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله ولا يعلم تأويله إلا الراسخون فى العلم وليسوا منهم وهم يقصدون الفتنة لا يقصدون العلم والحق وهذا كقوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فإن المعنى بقوله أسمعهم أفهمهم القرآن يقول لو علم الله فيهم حسن قصد وقبول للحق لأفهمهم القرآن لكن لو أفهمهم لتولوا عن الإيمان وقبول الحق لسوء قصدهم فهم جاهلون ظالمون كذلك الذين فى قلوبهم زيغ هم مذمومون بسوء القصد مع طلب علم ما ليسوا من أهله وليس إذا عيب هؤلاء على العلم ومنعوه يعاب من حسن قصـــده وجعله الله من الراسخين فى العلم .

فإن قيل : فأكثر السلف على أن الراسخين فى العلم لا يعلمون التأويل وكذلك أكثر أهل اللغة يروى هذا عن ابن مسعود وأبى بن كعب وابن عباس وعروة وقتادة وعمر بن عبد العزيز والفراء وأبي عبيد وثعلب وابن الانبارى قال ابن الانبارى فى قراءة عبد الله أن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم وفى قراءة أبى وابن عباس ويقول الراسخون فى العلم قال وقد أنزل فى كتابه أشياء استأثر بعلمها كقوله تعالى (قل إنما علمها عند الله) وقوله (وقرونا

بين ذلك كثيرا) فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد ويكفر به الكافر فيشقى .

قال ابن الانبارى : والذى يروى القول الآخر عن مجاهد هو ابن أبى نجيح ولا تصح روايته التفسير عن مجاهد فيقال قول القائل أن أكثر السلف على هذا قول بلا علم فإنه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قال أن الراسخين فى العلم لايعلمون تأويل المتشابه بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون وما ذكر من قراءة ابن مسعود وأبى بن كعب ليس لها إسناد يعرف حتى يحتج بها والمعروف عن ابن مسعود أنه كان يقول مافى كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فيما ذا أنزلت وقال أبو عبد الرحمن السلمى .

حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل وهذا أمر مشهور رواه الناس عامة أهل الحديث والتفسير وله إسناد معروف بخلاف ما ذكر من قراءتهما وكذلك ابن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله .

وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه دعا له بعلم تأويل الكتاب فكيف لا يعلم التأويل مع أن قراءة عبد الله أن تأويله إلا عند الله لاتناقض هذا القول فإن نفس التأويل لايأتى به إلا الله كما قال تعالى : (هو ينظرون إلا تأويله) وقال (بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) .

وقد اشتهر عن عامة السلف أن الوعد والوعيد من المتشابه وتأويل ذلك هو مجىء الموعود به وذلك عند الله لا يأتى به إلا هو وليس فى القرآن أن علم تأويله إلا عند الله كما قال فى الساعة (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لاتأتيكم

إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء) وكذلك لما قال فرعون لموسى (فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) .

فلو كانت قراءة ابن مسعود نفى العلم عن الراسخين لكانت أن علم تأويله إلا عند الله لم يقرأ أن تأويله إلا عند الله فإن هذا حق بلا نزاع وأما القراءة الأخرى المروية عن أبى وابن عباس فقد نقل عن ابن عباس ماينافضه وأخص أصحابه بالتفسير مجاهد ، وعلى تفسير مجاهد ، يعتمد أكثر الأئمة كالثورى والشافعى وأحمد بن حنبل والبخارى .

قال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به والشافعى فى كتبه أكثر الذى ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وكذلك البخارى فى صحيحه يعتمد على هذا التفسير وقول القائل لاتصح رواية ابن أبى نجيح عن مجاهد جوابه أن تفسير ابن أبى نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير بل ليس بأيدى أهل التفسير كتاب فى التفسير أصح من تفسير ابن أبى نجيح عن مجاهد إلا أن يكون نظيره فى الصحة ثم معه مايصدقه وهو قوله عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية وأسأله عنها .

وأيضا فأبى بن كعب رضى الله عنه قد عرف أنه كان يفسر ماتشابه من القرآن كما فسر قوله (فأرسلنا إليها روحنا) وفسر قوله (الله نور السموات والأرض) وقوله (وإذ أخذ ربك) ونقل ذلك معروف عنه بالإسناد أثبت من نقل هذه القراءة التى لا يعرف لها إسناد وقد كان يسأل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر ، وسئل عن ليلة القدر .

وأما قوله إن الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن فيقال هذا حق لكن هل فى الكتاب والسنة أو قول أحد من السلف أن الأنبياء والملائكة

والصحابة لايفهمون ذلك الكلام المجمل أم العلماء متفقون على أن المجمل في القرآن يفهم معناه ويعرف مافيه من الإجمال كما مثل به من وقت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذى أخبر الله به عن الساعة وأنها آتية لامحالة وأن الله انفرد بعلم وقتها فلم يطلع عن ذلك أحدا ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله السائل عن الساعة وهو فى الظاهر أعرابي لايعرف قال له متى الساعة قال ماالمسئول عنها بأعلم من السائل ولم يقل أن الكلام الذى نزل فى ذكرها لايفهمه أحد بل هذا خلاف إجماع المسلمين بل والعقلاء فإن إخبار الله عن الساعة وأشراطها كلام بين واضح يفهم معناه وكذلك قوله (وقرونا بين ذلك كثيراً) .

قد علم المراد بهذا الخطاب وأن الله خلق قرونا كثيرة لايعلم عددهم إلا الله كما قال (وما يعلم جنود ربك إلا هو) فأى شىء من هذا مما يدل على أن ماأخبر الله به من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر لايفهم معناه أحد لامن الملائكة والأنبياء ولا الصحابة ولا غيرهم ؛ وأما ماذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقه أنه كان لايفسر عامة آى القرآن إلا آيات قليلة رواها عن عائشة ومعلوم أنه إذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم أنه لايعرفه غيره من الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة كابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وغيرهم .

وأما اللغويون الذين يقولون إن الراسخين لايعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون فى ذلك فإن هؤلاء كلهم يتكلمون فى تفسير كل شىء فى القرآن ويتوسعون فى القول فى ذلك حتى مامنهم أحد إلا وقد قال فى ذلك أقوالا لم يسبق إليها وهى خطأ ، وابن الأنبارى الذى بالغ فى نصر ذلك القول هو من أكثر الناس كلاما فى معانى الآى المتشابهات يذكر فيها من الأقوال مالم ينقل عن أحد من السلف ويحتج لما يقوله فى القرآن بالشاذ من اللغة وهو قصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة وليس هو أعلم بمعانى القرآن والحديث واتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك وإن كان ابن الأنبارى من أحفظ الناس للغة .

لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة وقد نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسير غريب الحديث وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك وسلك فى ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم وهو وأمثاله يصيبون تارة ويخطئون أخرى فإن كان المتشابه لا يعلم معناه إلا الله فهم كلهم يجترءون على الله يتكلمون فى شيء لاسبيل إلى معرفته وإن كان ما بينوه من معانى المتشابه قد أصابوا فيه ولو فى كلمة واحدة ظهر خطأهم فى قولهم إن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ولا يعلمه أحد من المخلوقين فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا .

ومعلوم أنهم أصابوا فى شيء كثير مما ينصرون به المتشابه وأخطأوا فى بعض ذلك فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقينى فإنهم أصابوا فى كثير من تفسير المتشابه ، وكذلك ما نقل عن قتادة من أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه فكتابه فى التفسير من أشهر الكتب ونقله ثابت عنه من رواية معمر عنه ورواية سعيد بن أبي عروبة عنه .

ولهذا كان المصنفون فى التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل ومع هذا يفسر القرآن كله محكمه ومتشابهه ، والذى اقتضى شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع والجهمية والقدرية من المعتزلة وغيرهم فصار أولئك يتكلمون فى تأويل القرآن برأيهم الفاسد .

وهذا أصل معروف لأهل البدع أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلى وتأويلهم اللغوى فتفاسير المعتزلة مملوأة بتأويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ما أراد الله ورسوله فإنكار السلف والأئمة لهذه التأويلات الفاسدة كما قال الإمام أحمد فى ما كتبه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتاولته علي غير تأويله فهذا الذي أنكره السلف

والأئمة من التأويل لجاء بعدهم قوم انتسبوا إلى السنة بغير خبرة تامة بها وبما يخالفها وظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله فظنوا أن معنى التأويل هو معناه فى اصطلاح المتأخرين وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح فصاروا فى موضع يقولون وينصرون أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ثم يتناقضون فى ذلك من وجوه :

أحدها : أنهم يقولون النصوص تجرى على ظواهرها ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها ولهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر ويقررون المعنى الظاهر ويقولون مع هذا أن له تأويلا لا يعلمه إلا الله والتأويل عندهم ما يناقض الظاهر فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر وقد قرر معناه الظاهر وهذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ابن عقيل على شيخه القاضى أبى يعلى .

ومنها أنا وجدنا هؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بنص يخالف قولهم لا فى مسألة أصلية ولا فرعية إلا تأولوا ذلك النص بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات الجهمية والقدرية التى تخالفهم ، فأين هذا من قولهم لا يعلم معانى النصوص المتشابهة إلا الله واعتبر هذا بما تجده فى كتبهم من مناظرتهم المعتزلة على قولهم بالآيات التى تناقض قول هؤلاء مثل أن يحتجوا بقوله (والله لا يحب الفساد) (ولا يرضى لعباده الكفر) (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (لا تدركه الأبصار) (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (وإذ قال ربك للملائكة) ونحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد وإن كان فى بعضها حق فإن كان ما تأولوه حقا دل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل المتشابه فظهر تناقضهم وإن كان باطلا فذلك أبعد لهم .

وهذا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة الصابر فى المحنة الذى قد صار المسلمين معيارا يفرقون به بين أهل السنة والبدعة لما صنف كتابه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله تكلم

فى معانى المتشابه الذى اتبعه الزائغون ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله آية آية وبين معناها وفسرها ليبين فساد تأويل الزائغين واحتج على أن الله يرى وأن القرآن غير مخلوق وأن الله فوق العرش بالحجج العقلية والسمعية ورد ما احتج به النفاة من الحجج العقلية والسمعية وبين معانى الآيات التى سماها هو متشابهة وفسرها آية آية وكذلك لما ناظروه واحتجوا عليه بالنصوص جعل يفسرها آية آية وحديثاً حديثاً ويبين فساد ما تأولها عليه الزائغون ويبين هو معناها .

ولم يقل أحد أن هذه الآيات والأحاديث لا يفهم معناها إلا الله ولا قال أحد له ذلك بل الطوائف كلها مجتمعة على إمكان معرفة معناها لكن يتنازعون فى المراد كما يتنازعون فى آيات الأمر والنهى وكذلك تفسير المتشابه من الآيات والأحاديث التى يحتج بها الزائغون من الخوارج وغيرهم كقوله لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الشارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن وأمثال ذلك .

ويبطل قول المرجئة والجهمية وقول الخوارج والمعتزلة وكل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها ولم يقل أحد لا من أهل السنة ولا من هؤلاء لما يستدل به هو أو يستدل به عليه منازعة هذه آيات وأحاديث لا يعلم معناها أحد من البشر فأمسكوا عن الاستدلال بها وكان الإمام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين الذين بلغهم الصحابة معانى القرآن كما بلغوهم ألفاظه ونقلوا هذا كما نقلوا هذا .

لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ويدعون أن هذا هو التأويل الذى يعلمه الراسخون وهم مبطلون فى ذلك لا سيما تأويلات القرامطة والباطنية الملاحدة وكذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية

والقدرية وغيرهم ولكن هؤلاء يعترفون بأنهم لا يعلمون التأويل وإنما غايتهم أن يقولوا ظاهر هذه الآية غير مراد ولكن يحتمل أن يراد كذا وأن يراد كذا ولو تأولها الواحد منهم بتأويل معين فهو لا يعلم أنه مراد الله ورسوله بل يجوز أن يكون مراد الله ورسوله عندهم غير ذلك كالتأويلات التى يذكرونها فى نصوص الكتاب كما يذكرونه فى قوله (وجاء ربك والملك صفا صفا) وينزل ربنا (والرحمن على العرش استوى) (وكلم الله موسى تكليما) وغضب الله عليهم (وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وأمثال ذلك من النصوص فإن غاية ماعندهم يحتمل أن يراد به كذا ويجوز كذا ونحوا ذلك وليس هذا علما بالتأويل .

وكذلك كل من ذكر فى نص أقوالا واحتمالات ولم يعرف المراد فإنه لم يعرف تفسير ذلك وتأويله وإنما يعرف ذلك من عرف المراد ومن زعم من الملاحدة أن الأدلة السمعية لا تفيد العلم فمضمون مدلولاته لا يعلم أحد تفسير المحكم ولا تفسير المتشابه ولا تأويل ذلك وهذا إقرار منه على نفسه بأنه ليس من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه فضلا عن تأويل المحكم فإذا انضم إلى ذلك أن يكون كلامهم فى العقليات فيه من السفسطة والتلبيس مالا يكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لا معرفة بالسمعيات ولا بالعقليات وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) .

ومدح الذين إذا ذكروا بآياته لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يفقهون ويعقلون وذم الذين لا يفقهون ولا يعقلون فى غير موضع من كتابه وأهل البدع المخالفون للكتاب والسنة يدعون العلم والعرفان والتحقيق وهم من أجهل الناس بالسمعيات والعقليات وهم يجعلون ألفاظا لهم مجملة متشابهة تتضمن حقا وباطلا يجعلونها هى الأصول المحكمة ويجعلون ماعارضها من نصوص الكتاب والسنة من المتشابه الذي لا يعلم معناه عندهم إلا الله

وما يتأولونه بالاحتمالات لا يفيد فيجعلون البراهين شبهات والشبهات براهين كما قد بسط ذلك فى موضع آخر .

وقد نقل القاضى أبو يعلى عن الإمام أحمد أنه قال المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان والمتشابه ما احتاج إلى بيان ، وكذلك قال الإمام أحمد فى رواية وعن الشافعى قال المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجها واحداً والمتشابه ما احتمل من التأويل وجوها وكذلك قال الإمام أحمد وكذلك قال ابن الانبارى المحكم مالم يحتمل من التأويل إلا وجها واحداً والمتشابه الذى تعتوره التأويلات فيقال حينئذ لجميع الأمة سلفها وخلفها يتكلمون فى معانى القرآن التى تحتمل التأويلات وهؤلاء الذين ينصرون أن الراسخين فى العلم لا يعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاماً فيه .

والأئمة كالشافعى وأحمد ومن قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معانى ويرجحون بعضها على بعض بالأدلة فى جميع مسائل العلم الأصولية والفروعية لا يعرف عن عالم من علماء المسلمين أنه قال عن نص احتج به محتج فى مسأله أن هذا لا يعرف أحد معناه فلا يحتج به ولو قال أحد ذلك لقيل له مثل ذلك وإذا ادعى فى مسائل النزاع المشهورة بين الأئمة أن نصه محكم يعلم معناه وأن النص الآخر متشابه لا يعلم أحد معناه قوبل بمثل هذه الدعوى وهذا بخلاف قول القائل إن من النصوص ما معناه جلى واضح ظاهر لا يحتمل إلا وجها واحدا لا يقع فيه اشتباه .

ومنها ما فيه خفاء واشتباه يعرف معناه الراسخون فى العلم فإن هذا مستقيم صحيح ، وحينئذ فالخلف فى المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال أنه يعرف معناه يبين حجة على ذلك ، وأيضا فما ذكره السلف والخلف فى المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال : إن المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف وهذا القول مأثور عن ابن مسعود ، وابن عباس وقتادة ، والسدى وغيرهم .

وابن مسعود وابن عباس وقتادة هم الذين نقل عنهم أن الراسخين فى العلم لايعلمون تأويله .

ومعلوم قطعاً باتفاق المسلمين أن الراسخين يعلمون معنى المنسوخ فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل ويدل على أنه كذب إن كان هذا صدقا وإلا تعارض النقلان عنهم والمتواتر عنهم أن الراسخين يعلمون معنى المتشابه .

والقول الثانى : مأثور عن جابر بن عبد الله أنه قال المحكم ماعلم العلماء تأويله والمتشابه مالم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة ، ومعلوم أن وقت قيام الساعة مما اتفق المسلمون على أنه لايعلمه إلا الله فإذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به لا يعلم وقت تأويله إلا الله وهذا حق ولا يدل ذلك على أنه لايعرف معنى الخطاب بذلك وكذلك إن أريد بالتأويل حقائق مايوجد وقيل لايعلم كيفية ذلك إلا الله .

فهذا قد قدمناه وذكر أنه على قول هؤلاء من وقف عند قوله (ومايعلم تأويله إلا الله) هو الذى يجب أن يراد بالتأويل وأما أن يراد بالتأويل التفسير ومعرفة المعنى ويقف على قوله إلا الله فهذا خطأ قطعاً مخالف للكتاب والسنة وإجماع المسلمين .

ومن قال ذلك من المتأخرين فإنه متناقض يقول ذلك ويقول ماينافضه وهذا القول يناقض الإيمان بالله ورسوله من وجوه كثيرة ويوجب القدح فى الرسالة ولا ريب أن الذى قالوه لم يتدبروا لوازمه وحقيقة ماأطلقوه وكان أكبر قصدهم دفع تأويلات أهل البدع المتشابهة وهذا الذى قصدوه حق وكل مسلم يوافقهم عليه لكن لاندفع باطلا بباطل آخر ولا نرد بدعة ببدعة ولا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بأن يقال للرسول والصحابة كانوا لايعرفون تفسير ماتشابه من القرآن ففى هذا من الظن فى الرسول وسلف الأمة ماقد يكون أعظم من خطأ طائفة فى تفسير بعض الآيات والعاقل لايبنى قصرا ويهدم مصرا .

والقول الثالث : أن المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس ، وعلى هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاماً تاما من الجمل الإسمية والفعلية وإنما هى أسماء موقوفة ولهذا لم تعرب فإن الإعراب إنما يكون بعد العقد والتركيب وإنما نطق بها موقوفة كما يقال : ا ب ت ، ولهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذى ينطق به فإنها فى النطق أسماء .

ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاى من زيد قالوا زا قال نطقتم بالإسم وإنما النطق بالحرف زه فهى فى اللفظ أسماء وفى الخط حروف مقطعة الم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف ، والحرف فى لغة الرسول وأصحابه يتناول الذى يسميه النحاة اسما وفعلا وحرفا .

ولهذا قال سيبويه فى تقسيم الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الاسم حرف والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذى يطلق النحاة عليه الحرف إنه جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وهذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام وأما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب فى صورة الحرف المجرد وينطق بها غير معربة ولا يقال فيها معرب ولا مبنى لأن ذلك إنما يقال فى المؤلف ، فإذا كان على هذا القول كل ماسوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله وكلام رسوله ، ثم يقال هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفاً وهو المتشابه كان ماسواها ملوم المعنى وهذا المطلوب ، وأيضاً فإن الله تعالى قال (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء وإنما يعدها آيات الكوفيون .

وسبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابه ولكن هذا القول يوافق مانقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء ، والرابع أن المتشابه ما اشتبهت معانيه قاله مجاهد وهذا يوافق قول أكثر العلماء وكلهم يتكلم فى تفسير هذا المتشابه ويبين معناه والخامس أن المتشابه ما تكررت ألفاظه قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المحكم ما ذكر الله فى كتابه من قصص الأنبياء ففصله وبينه والمتشابه هو ما اختلفت ألفاظه فى قصصهم عند التكرير كما قال فى موضع فى قصة نوح (احمل فيها) وقال فى موضع آخر (اسلك فيها) وقال فى عصا موسى (فإذا هى حية تسعى)وفى موضع (فإذا هى ثعبان مبين) .

وصاحب هذا القول جعل المتشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ وقد صنف بعضهم فى هذا المتشابه لأن القصة الواحدة يتشابه معناها فى الموضعين فاشتبه على القارىء أحد اللفظين بالآخر وهذا التشابه لاينفى معرفة المعانى بلا ريب ولا يقال فى مثل هذا أن الراسخين يختصون بعلم تأويله فهذا القول إن كان صحيحا كان حجة لنا وإن كان ضعيفا لم يضرنا ، والسادس أنه ما احتاج إلى بيان كما نقل عن أحمد ، والسابع أنه ما احتمل وجوها كما نقل عن الشافعى وأحمد .

وقد نقل عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال إنك لاتفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها وقد صنف الناس كتب الوجوه والنظائر فالنظائر اللفظ الذى اتفق معناه فى الموضعين وأكثر ، والوجوه الذى اختلف معناه كما يقال الأسماء المتواطئة والمشتركة وإن كان بينهما فرق لبسطه موضع آخر وقد قيل : هى نظائر فى اللفظ ومعانيها مختلفة فتكون كالمشتركة وليس كذلك بل الصواب أن المراد بالوجوه والنظائر هو الأول .

وقد تكلم المسلمون سلفهم وخلفهم فى معانى الوجوه وفيما يحتاج إلى بيان وما يحتمل وجوها فعلم يقينا أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن

مما يمكن العلماء معرفة معانيه واعلم أن من قال أن من القرآن كلاما لا يفهم أحد معناه ولا يعرف معناه إلا الله فإنه مخالف لإجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة ، والثامن أن المتشابه هو القصص والأمثال وهذا أيضا يعرف معناه ، والتاسع أنه مايؤمن به ولا يعمل به وهذا أيضا مما يعرف معناه ، والعاشر قول بعض المتأخرين أن المتشابه آيات الصفات وأحاديث الصفات وهذا أيضا مما يعلم معناه .

فإن أكثر آيات الصفات اتفق المسلمون على أنه يعرف معناها والبعض الذى تنازع الناس فى معناه إنما ذم السلف منه تأويلات الجهمية ونفوا علم الناس بكيفيته كقول مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول وكذلك قال سائر أئمة السنة وحينئذ ففرق بين المعنى المعلوم وبين الكيف المجهول فإن سمى الكيف تأويلا ساغ أن يقال : هذا التأويل لا يعلمه إلا الله كما قدمناه أولا ، وأما إذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلا كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلا .

وقيل إن النبى صلى الله عليه وسلم وجبريل والصحابة والتابعين ما كانوا يعرفون معنى قوله (الرحمن على العرش استوى) ولا يعرفون معنى قوله : (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) ولا معنى قوله : (غضب الله عليهم) بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمى الذى لا يفهمه العربى وكذلك إذا قيل كان عندهم قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وقوله (وكان سميعاً بصيراً) وقوله (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقوله : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) وقوله : (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وقوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقوله : (إنا جعلناه قرآنا عربياً) وقوله : فأجره حتى يسمع كلام الله) وقوله : (فلما أتاها نودى أن بورك من فى النار ومن

حولها) وقوله: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) وقوله : (وجاء ربك والملك صفا صفا هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك — ثم استوى إلى السماء وهى دخان — إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) إلى أمثال هذه الآيات .

فمن قال عن جبريل ومحمد صلوات الله عليهما وعن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين والجماعة أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من معانى هذه الآيات بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة وإنما كانوا يقرءون ألفاظا لا يفهمون لها معنى كما يقرأ الإنسان كلاما لا يفهم منه شيئاً فقد كذب على القوم والنقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا وأنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن وإن كان كنه الرب عز وجل لا يحيط به العباد ولا يحصون ثناء عليه فذاك لا يمنع أن يعلموا من أسمائه وصفاته ما علمهم سبحانه وتعالى كما أنهم إذا علموا أنه بكل شىء عليم وأنه على كل شىء قدير لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه وقدرته وإذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته .

وهذا مما يستدل به على أن الراسخين يعلمون التأويل فإن الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ومعلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فى الآيات المحكمات فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لا ينفى العلم بالتأويل الذى هو تفسير الكلام وبيان معناه بل يعلمون تأويل المحكم والمتشابه ولا يعرفون كيفية الرب لا فى هذا ولا فى هذا. فإن قيل هذا يقدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذى يراد به التفسير وبين التأويل الذى فى كتاب الله تعالى قيل لا يقدح فى ذلك فإن معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور ذلك فى القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة فى الخارج المرادة بذلك الكلام فإن الشىء له وجود فى الأعيان ووجود فى الأذهان ووجود فى اللسان ووجود فى البيان .

فالكلام لفظ له معنى فى القلب ويكتب ذلك اللفظ بالخط فإذا عرف الكلام وتصور معناه فى القلب وعبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة فى الخارج وليس كل من عرف الأول عرف عين الثانى مثال ذلك أن أهل الكتاب يعلمون ما فى كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وخبره ونعته وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام وكذلك الإنسان قد يعرف الحج والمشاعر كالبيت والمساجد ومنى وعرفة ومزدلفة ويفهم معنى ذلك ولا يعرف الأمكنة حتى يشاهدها فيعرف أن الكعبة المشاهدة المذكورة فى قوله (ولله على الناس حج البيت) .

وكذلك أرض عرفات هى المذكورة فى قوله : (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله) وكذلك المشعر الحرام هى المزدلفة التى بين مأزمى عرفة ووادى محسر يعرف أنها المذكورة فى قوله : (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وكذلك الرؤيا يرها الرجل ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره مثل أن يقول هذا يدل على أنه كان كذا ويكون وكذا وكذا ثم إذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا ليس تأويلها نفس علمه وتصوره وكلامه .

ولهذا قال يوسف الصديق (هذا تأويل رؤياى من قبل) وقال : (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن يأتى التأويل وإن كان التأويل لم يقع بعد وإن كان لا يعرف متى يقع فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله فى القرآن من الوعد والوعيد وإن كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور فى قوله سبحانه وتعالى : (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله) الآية ، وقال تعالى : (لكل نبأ مستقر) .

فنحن نعلم مستقر نبأ الله وهو الحقيقة التى أخبر الله بها ولا نعلم متى يكون وقد لا نعلم كيفيتها وقدرها وسواء فى هذا تأويل المحكم والمتشابه كما

قال الله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد فقد عرف تأويلها وهو وقوع الاختلاف والفتن وإن لم يعرف متى يقع وقد لا يعرف صفته ولا حقيقته فإذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذى دلت عليه الآية وغيره قد لا يعرف ذلك أو ينساه بعد ما كان عرفه فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن فإنه لما نزل قوله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها وإذا نحن المعنيون بها (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) .

وأيضا فإن الله قد ذم فى كتابه من يسمع القرآن ولا يفقه معناه وذم من لم يتدبره ومدح من يسمعه ويفقهه فقال تعالى : (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك) الآية فأخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم ماذا قال الرسول فى هذا الوقت المتقدم فدل على أن أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معانى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا يعرفه غيرهم وهؤلاء هم الراسخون فى العلم الذين يعلمون معانى القرآن محكمة ومتشابهة وهذا كقوله تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) تدل على أن العالمين يعقلونها وإن كان غيرهم لا يعقلها .

والأمثال هى مايمثل به من المتشابه وعقل معناها وهو معرفة تأويلها الذى يعرفه الراسخون فى العلم دون غيرهم ويشبه هذا قوله تعالى : (ويرى الذين أتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) فلولا أنهم عرفوا معنى ما أنزل كيف عرفوا أنه حق أو باطل وهل يحكم على كلام لم يتصور معناه أنه حق أو باطل ، وقال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

وقال : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال تعالى : (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) وقال تعالى (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) وقال (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وقال : (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا) إلى قوله : (ومن بيننا وبينك حجاب) .

فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لايفهم أحد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا بعضه وهذا خلاف مادل عليه القرآن لاسيما عامة ما كان المشركون ينكرونه الآيات الخبرية والإخبار عن اليوم الآخر أو الجنة والنار وعن نفى الشركاء والأولاد عن الله وتسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيا وإثباتا وما يخبرهم به عن اليوم الآخر وقد ذم الله من لايعقل ذلك ولا يفقهه ولا يتدبره .

فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك وتدبره وقد قال تعالى (ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) وقال (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) الآية وقال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) الآية .

وقد استدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شىء إلا كان منفردا به كقوله : (قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وقوله : (لا يجليها لوقتها إلا هو) وقوله : (ومايعلم جنود ربك إلا هو) فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفى فإن كان مما استأثر الله به قيل فيه

ذلك وإن كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وقوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) إلى قوله : (رصدا) .

وقوله : (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وقوله : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) وقوله : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه) إلى قوله : (شهيدا) وقوله : (قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل) وقال للملائكة (إنى أعلم مالا تعلمون) وقالت الملائكة (لاعلم لنا إلا ماعلمتنا) .

وفى كثير من كلام الصحابة الله ورسوله أعلم وفى الحديث المشهور أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك وأنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك وقد قال تعالى : (فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) وأول النزاع النزاع فى معانى القرآن فإن لم يكن الرسول عالما بمعانيه امتنع الرد إليه وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عن مجمله وأنها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر ، وقال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) إلى قوله (فيما اختلفوا فيه) .

ومن أعظم الاختلاف الاختلاف فى المسائل العلمية الخبرية المتعلقة بالإيمان بالله واليوم الآخر فلابد أن يكون الكتاب حاكما بين الناس فيما اختلفوا فيه من ذلك ويمتنع أن يكون حاكما إن لم يكن معرفة معناه ممكنا وقد نصب الله عليه دليلا وإلا فالحاكم الذى لا يتبين ما فى نفسه لا يحكم بشيء وكذلك إذا قيل هو الحاكم بالكتاب فإن حكمه فصل يفصل به بين الحق والباطل وهذا إنما يكون بالبيان وقد قال تعالى فى القرآن : (إنه لقول فصل) أى فاصل يفصل بين الحق والباطل فكيف يكون فصلا إذا لم يكن إلى معرفة معناه سبيل .

وأيضاً فإن الله قال (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) فذم هؤلاء الذين لايعلمون الكتاب إلا أمانى كما ذم الذين يحرفون معناه ويكذبون فقال تعالى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) إلى قوله : (أفلا تعقلون) فهذا أحد الصنفين ثم قال تعالى : (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى أى تلاوة وإن هم إلا يظنون) ثم ذم الذين يفترون كذبا يقولون هى من عند الله وما هى من عند الله فقال : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) إلى قوله : (يكسبون) .

وهذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع ، فإن أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان :

أحدهما : عالم بالحق يتعمد خلافه ، والثانى جاهل متبع لغيره . فالأولون يبتدعون مايخالف كتاب الله ويقولون هو من عند الله إما أحاديث مفتريات وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل ويعضدون ذلك بما يدعون من الرأى والعقل وقصدهم بذلك الرياسة والمآكل فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية وقيل لهم هذه تخالفكم حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة قال الله تعالى : (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) .

وأما النوع الثانى الجهال : فهؤلاء الأميون الذين لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون فعن ابن عباس وقتادة فى قوله (ومنهم أميون) أى غير عارفين بمعانى الكتاب يعلمونها حفظا وقراءة بلا فهم ولا يدرون مافيه وقوله إلا أمانى أي تلاوة فهم لايعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على مايسمعونه يتلى

عليهم قاله الكسائى والزجاج وكذلك قال ابن السائب لايحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته إلا أمانى إلا مايحدثهم به علماؤهم .

وقال أبو روق وأبو عبيدة أى تلاوة وقراءة عن ظهر القلب ولا يقرؤنها فى الكتب ، ففى هذا القول جعل الأمانى التى هى التلاوة تلاوة الأميين أنفسهم وفى ذلك جعله مايسمعونه من تلاوة علمائهم وكلا القولين حق والآية تعمهما فإنه سبحانه وتعالى قال : لايعلمون الكتاب لم يقل لايقرءون ولا يسمعون ثم قال : إلا أمانى وهذا استثناء منقطع لكن يعلمون أمانى إما بقراءتهم لها وإما بسماعهم قراءة غيرهم وإن جعل الاستثناء متصلا كان التقدير لايعلمون الكتاب إلا علم أمانى لاعلم تلاوة فقط بلا فهم ، والأمانى جمع أمنية وهى التلاوة ومنه قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) قال الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليلة　　　وآخرها لاقى حمام المقادر

والأميون نسبة إلى الأمة قال بعضهم إلى الأمة وما عليه العامة فمعنى الأمى العامى الذى لاتمييز له ، وقد قال الزجاج هو على خلق الأمة التى لم تتعلم فهو على جبلته ، وقال غيره هو نسبة إلى الأمة لأن الكتابة كانت فى الرجال دون النساء ولأنه على ماولدته أمه والصواب أنه نسبة إلى أمة كما يقال عامى نسبة إلى العامة التى لم تتميز عن عامة بما تمتاز به الخاصة وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة ويقال الأمى لمن لايقرأ ولا يكتب كتابا ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرءونه وإن كان قد يكتب ويقرأ مالم ينزل وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله قال الله تعالى : (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا) وقال (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) .

وقد كان فى العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب وكلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقو أميين باعتبار أنهم لا يقرءون كتابا من حفظهم بل هم يقرءون القرآن من حفظهم وأناجيلهم فى صدورهم لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم بل قرآنهم محفوظ فى قلوبهم كما فى الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه قال خلقت عبادى حنفاء — وقال فيه — إنى مبتليك ومبتل بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا » فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم فى قلوبهم بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظا فى قلوب الأمة .

وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه كما فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا » فلم يقل لا نقرأ كتاباً ولا نحفظ بل قال لا نكتب ولا نحسب فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم ولهذا يوجد أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه .

وقوله (فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى) هو أمى بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما فى الكتب لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ ، والأمى فى اصطلاح الفقهاء خلاف القارىء ليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول ويعنون به فى الغالب من لا يحسن الفاتحة فقوله تعالى : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) أى لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة لا يفهمون معناها وهذا يتناول من لا يحسن الكتابة ولا القراءة

من قبله وإنما يسمع أمانى علما كما قال ابن السائب ويتناول من يقرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتاب كما قال أبو روق وأبو عبيدة .

وقد يقال إن قوله لايعلمون الكتاب أى الخط أى لايحسنون الخط وإنما يحسنون التلاوة ، ويتناول أيضاً من يحسن الخط ولا يفهم مايقرأه ويكتبه كما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معانى الكتاب يعلمونها حفظا وقراءة بلا فهم ولا يدرون مافيه ، والكتاب هذا المراد به الكتاب المنزل وهو التوراة ليس المراد به الخط فإنه قال وإن هم ألا يظنون فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعانى الكتاب وإلا فكون الرجل لايكتب بيده لايستلزم أن يكون لاعلم عنده بل كثير ممن يكتب بيده لايفهم مايكتب وكثير ممن لايكتب يكون عالما يعلم مايكتبه غيره .

وأيضاً فإن الله ذكر هذا فى سياق الذم لهم وليس فى كون الرجل لايخط ذم إذا قام بالواجب وإنما الذم على كونه لايعقل الكتاب الذى أنزل إليه سواء كتبه وقرأه أو لم يكتبه ولم يقرأه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « هذا أوان يرفع العلم فقال له زياد بن لبيد كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن فو الله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا فقال له إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغنى عنهم، وهو حديث معروف رواه الترمذى وغيره ، ولأنه قال تعالى قبل هذا (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) فأولئك عقلوه ثم حرفوه وهم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبونه ويقرءونه حفظا وكتابة أو لم يكونوا كذلك فكان من المناسب أن يذكر الذين لايعقلونه وهم الذين لايعلمونه إلا أمانى فإن القرآن أنزله الله كتابا متشابها مثانى ويذكر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الأقسام فيكون مثانى ويذكر الأمثال فيكون متشابها وهؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرءون فهم أميون من أهل

الكتاب كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمى وساذج وعامى وإن كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب إذا كان لايعرف معناه .

وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لايعرفون الكتاب إلا تلاوة دون فهم معانيه كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون دل على أن كلا النوعين مذموم، الجاهل الذى لا يفهم معانى النصوص والكاذب الذى يحرف الكلم عن مواضعه ويتكلم برأيه ويؤله بما يضيفه إلى الله فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله ويجعلون تلك المقالات التى ابتدعوها هى مقالة الحق وهى التى جاء بها الرسول والتى كان عليها السلف ونحو ذلك ثم يحرفون النصوص التى تعارضها فهؤلاء إذا تعمدوا ذلك وعلموا أن الذى يفعلونه مخالف للرسول فهم من جنس هؤلاء اليهود وهذا يوجد فى كثير من الملاحدة ويوجد فى بعض الأشياء فى غيرهم .

وأما الذين قصدهم أتباع الرسول باطنا وظاهراً وغلطوا فيما كتبوه وتأولوه فهؤلاء ليسوا من جنسهم لكن وقع بسبب غلطهم ماهو من جنس ذلك الباطل كما قيل إذا زل بزلته عالم وهذا حال المتأولين من هذه الأمة وإما رجل مقلد أمى لا يعرف من الكتاب إلا مايسمعه منهم أو مايتلوه هو ولا يعرف إلا أمانى وقد ذمه الله على ذلك فعلم أن ذم الله الذين لايعرفون معانى القرآن ولايتدبرونه ولا يعقلونه كما صرح القرآن بذمهم فى غير موضع فيمتنع مع هذا أن يقال أن أكثر القرآن أو كثيرا منه لا يعلمه أحد من الخلق إلا أمانى لا جبريل ولا محمد ولا الصحابة ولا أحد من المسلمين فإن هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به .

فإن قيل : فلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية قيل نعم لكن معرفة معانى الجميع فرض على الكفاية وعلى كل مسلم معرفة مالابد منه وهؤلاء ذمهم الله لأنهم لايعلمون معانى الكتاب إلا تلاوة وليس عندهم إلا ظن وهذا

يشبه قوله : (وأنهم لفى شك منه مريب) فإن قيل فقد قال بعض المفسرين إلا أمانى إلا مايقولونه بأفواههم كذباً وباطلا وروى هذا عن بعض السلف واختاره الفراء ، وقال الأمانى الأكاذيب المفتعلة قال بعض العرب لابن دأب - وهو يحدث - أهذا شيء رويته أم تمنيته أى افتعلته فأراد بالأمانى الأشياء التى كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم ثم أضافوها إلى الله من تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم الأمانى يتمنون على الله الباطل والكذب كقولهم : (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وقولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وقولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) وهذا أيضا يروى عن بعض السلف قيل كلا القولين ضعيف والصواب الأول لأنه سبحانه قال (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى) وهذا الاستثناء إما أن يكون متصلا أومنقطعا فإن كان متصلا لم يجز استثناء الكذب ولا أمانى القلب من الكتاب وإن كان منقطعاً فالاستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيها له من بعض الوجوه فهو من جنسه الذى لم يذكر فى اللفظ ليس من جنس المذكور ولهذا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرغ وذلك كقوله : (لايذوقون فيها الموت) ثم قال : (إلا الموتة الأولى) .

فهذا منقطع لأنه يحسن أن يقال (لايذوقون إلا الموتة الأولى) وكذلك قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) لأنه يحسن أن يقال لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارة ، وقوله (وما لهم به من علم إلا اتباع الظن) يصلح أن يقال وما لهم إلا اتباع الظن فهنا لما قال (لايعلمون الكتاب إلا أمانى) يحسن أن يقال لا يعلمونه إلا أمانى فإنهم يعلمونه تلاوة ويقرءونها ويسمعونها ولا يحسن أن يقال لايعلمون إلا ماتتمناه قلوبهم أولا يعلمون إلا الكذب فإنهم قد كانوا يعلمون ماهو صدق أيضا فليس كل ماعلموه من علمائهم كان كذباً بخلاف الذى لا يعقل معنى الكتاب فإنه لايعلم إلا تلاوة .

وأيضاً فهذه للأمانى الباطلة التى تمنوها بقلوبهم وقالوا بألسنتهم كقوله تعالى (تلك أمانيهم قد اشتركوا فيها كلهم) لايخص بالذم الأميون منهم وليس لكونهم أميين مدخل فى الذم بهذه ولا لنفى العلم بالكتاب مدخل فى الذم بهذه بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لايعلم أنها باطل ، ولهذا لما ذم الله بها عمم ولم يخص فقال تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصاري تلك أمانيهم) الآية ، وأيضاً فإنه قال (وإن هم إلا يظنون) .

فدل على أنه ذمهم على نفى العلم وعلى أنه ليس معهم إلا الظن وهذا حال الجاهل بمعانى الكتاب لاحال من يعلم أنه يكذب ، فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل ولو أريد ذلك لقيل لايقولون إلاأمانى لم يقل لايعلمون الكتاب إلا أمانى بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عندالله وماهو من عند الله ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلا فهم يحرفون معانى الكتاب وهم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه ويكذبون فى لفظهم وخطهم .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لودخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن » وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لتأخذن أمتى ماأخذالأمم قبلها شبرابشبر وذراعا بذراع قالوا يارسول الله فارس والروم ؟ قال ومن الناس إلا أولئك » .

فهذا دليل على أن ماذم الله به أهل الكتاب فى هذه الآية يكون فى هذه الأمة من يشبههم فيه وهذا حق قد شوهد قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على

كل شيء شهيد) فمن تدبر ماأخبر الله به ورسوله رأى أنه قد وقع من ذلك أمور كثيرة بل أكثر الأمور ودله ذلك على وقوع الباقى .

﴿ فصـــل ﴾

فقد تبين أن الواجب طلب علم ماأنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ومعرفة ماأراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم فكل مايحتاج الناس إليه فى دينهم فقد بينه الله ورسوله بيانا شافياً فكيف بأصول التوحيد والإيمان ثم إذا عرف مابينه الرسول نظر فى أقوال الناس وما أرادوه بها فعرضت على الكتاب والسنة والعقل الصريح دائما موافق للرسول لايخالفه قط فإن الميزان مع الكتاب والله أنزل الكتاب بالحق والميزان لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ماجاء به فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه .

فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحيرات العقول لاتخبر بمحالات العقول فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك أن يبتدع بدعة برأى رجال وتأويلاتهم ثم يجعل ماجاء به الرسول تبعاً لها ويحرف ألفاظه ويتأول على وفق ماأصلوه وهؤلاء تجدهم فى نفس الأمر لايعتمدون على ماجاء به الرسول ولا يتلقون الهدى منه ولكن ماوافقهم منه قبلوه وجعلوه حجة لا عمدة وماخالفهم تأولوه كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أوفوضوه كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، وهؤلاء قد لا يعرفون ماجاء به الرسول إماعجزا وإماتفريطا فإنه يحتاج إلى مقدمتين أن الرسول قال كذا وأنه أراد به كذا .

أما الأولى فعامتهم لا يرتابون فى أنه جاء بالقرآن وإن كان من غلاة أهل البدع من يرتاب فى بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها وهم يظنون أن هذه رواها آحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ ولا يعرفون من كثرة طرقها وصفات رجالها والأسباب الموجبة للتصديق بها مايعلمه أهل

العلم بالحديث فإن هؤلاء يقطعون قطعاً يقينا بعامة المتون الصحيحة التى فى الصحيحين كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

وأما المقدمة الثانية فإنهم قد لا يعرفون معانى القرآن والحديث ومنهم من يقول الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين بمراد المتكلم وقد بسطنا على فساد ذلك فى غير هذا الموضع ، وكثير منهم إنما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم فالنصوص التى توافقهم يحتجون بها والتى تخالفهم يتأولونها ، وكثير منهم لم يكن عمدتهم فى نفس الأمر اتباع نص أصلا وهذا فى البدع الكبار مثل الرافضة والجهمية فإن الذى وضع الرفض كان زنديقاً ابتدأ بعمل الكذب الصريح الذى يعلم أنه كذب كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون .

ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ماافتروه أولئك وهم فى شك منه كما قال تعالى : (وإن الذين أوتوا العلم من بعدهم لفى شك منه مريب) وكذلك الجهمية ليس معهم على نفى الصفات وعلو الله على العرش ونحو ذلك نص أصلا لا آية ولا حديث ولا أثر عن الصحابة بل الذى ابتدأ ذلك لم يكن قصده اتباع الأنبياء بل وضع ذلك كما وضعت عبادة الأوثان وغير ذلك من أديان الكفار مع علمهم بأن ذلك مخالف للرسل كما ذكر عن مبدلة اليهود ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا أصل ذلك وهذا بخــلاف بدعة الخوارج فإن أصلها مافهموه من القرآن فغلطوا فى فهمه ومقصودهم اتباع القرآن باطنا وظاهراً ليسوا زنادقة .

وكذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر والنهى والوعد والوعيد والذى جاءت به الرسل ويتبعون من القرآن مادل على ذلك فعمرو بن عبيد وأمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول كالذى ابتدع الرفض وكذلك الارجاء إنما أحدثه قوم قصدهم جعل أهل القبلة كلهم مؤمنين ليسوا كفارا

قابلوا الخوارج والمعتزلة فصاروا فى طرف آخر وكذلك التشيع المتوسط الذى مضمونه تفضيل على وتقديمه على غيره ونحو ذلك لم يكن هذا من إحداث الزنادقة بخلاف دعوى النص فيه والعصمة فإن الذى ابتدع ذلك كان منافقاً زنديقاً ولهذا قال : عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وغيرهما أصول البدعة أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة . قالوا : والجهمية ، ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة .

وكذلك ذكر أبو عبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد فى ذلك قولين هذا أحدهما وهذا أرادوا به التجهم المحض الذى كان عليه جهم نفسه ومتبعوه عليه وهو نفى الأسماء مع نفى الصفات بحيث لايسمى الله بشىء من أسمائه الحسنى ولا يسميه شيئاً ولا موجوداً ولا غير ذلك وإنما نقل عنه إنه كان يسميه قادراً لأن جميع الأسماء يسمى بها الخلق فزعم أنه يلزم منها التشبيه بخلاف القادر فإنه كان رأس الجبرية وعنده ليس للعبد قدرة ولا فعل ولا يسمى غير الله قادراً فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً وشر منه نفاة الأسماء والصفات وهم الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة .

ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين بل فيهم من الكفر الباطن ماهو أعظم من كفر اليهود والنصارى وهؤلاء لاريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة وإذا أظهروا الإسلام فغايتهم أن يكونوا من المنافقين كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولئك كانوا أقرب إلى الإسلام من هؤلاء فإنهم كانوا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة وهؤلاء قد يقولون برفعها فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة لكن قد يقال أن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء وأما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة ونحوهم الذين يتدينون بدين الإسلام باطناً وظاهراً فهؤلاء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بلا ريب .

وكذلك من هو خير منهم كالكلابية والكرامية وكذلك الشيعة المفضلين

لعلى ومن كان منهم من يقول بالنص والعصمة مع اعتقاده نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً وظنه أن ماهو عليه هو دين السلام فهؤلاء أهل ضلال وجهل ليسوا خارجين عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، وعامة هؤلاء ممن يتبع ماتشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كما أن من المنافقين والكفار من يفعل ذلك .

ولهذا قال طائفة من المفسرين كالربيع بن أنس هم النصارى كنصارى نجران وقالت طائفة كالكلبي هم اليهود وقالت طائفة كابن جريج هم المنافقون وقالت طائفة كالحسن هم الخوارج وقالت طائفة كقتادة هم الخوارج والشيعة وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) يقول إن لم يكونوا الحرورية والسبائية فلا أدرى من هم ، والسبائية نسبة إلى عبد الله ابن سبأ رأس الرافضة .

﴿ فصـــل ﴾

والمعنى الصحيح الذى هو نفى المثل والشريك والند قد دل عليه قوله سبحانه أحد وقوله (ولم يكن له كفوا أحد)وقوله (هل تعلم له سميا)وأمثال ذلك فالمعانى الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك وقوله القائل : الأحد أو الصمد ـ أو غير ذلك هو الذى لاينقسم ولا يتفرق أو ليس بمركب ونحو ذلك هذه العبارات إذا عنى بها أنه لايقبل التفرق والانفصال فهذا حق وأما إن عنى أنه لا يشار إليه بحال أو من جنس مايعنون بالجوهر الفرد أنه لايشار إلى شىء منه دون شىء فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع وجوده وإنما يقدر فى الذهن تقديرا وقد علمنا أن العرب حيث أطلقت لفظ الواحد والأحد نفيا وإثباتا لم ترد هذا المعنى فقوله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) لم يرد به هذا المعنى الذى فسروا به الواحد الأحد.

وكذلك قوله (وإن كانت واحدة فلها النصف) وكذلك قوله (ولم يكن له كفواً أحد) فإن المعنى لم يكن له أحد من الآحاد كفواً له فإن كان

الواحد عبارة عما لا يتميز منه شيء عن شيء ولا يشار إلى شيء منه دون شيء فليس فى الموجودات ماهو أحد إلا مايدعونه من الجوهر الفرد ومن رب العالمين وحينئذ لا يكون قد نفى عن شيء من الموجودات أن يكون كفواً للرب لأنه لم يدخل فى مسمى أحد .

وقد بسطنا الكلام على هذا بسطا كثيراً فى المباحث العقلية والسمعية التى يذكرها نفاة الصفات من الجهمية وأتباعهم فى كتابنا المسمى بيان تلبيس الجهمية فى تأسيس بدعهم الكلامية ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف كالإمام أحمد وغيره على نفى الصفات باسم الواحد قال أحمد قالوا لا تكونوا موحدين أبداً حتى تقولوا قد كان الله ولا شيء قلنا نحن نقول كان الله ولا شيء ولكن إذا قلنا إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلها واحداً وضربنا لهم فى ذلك مثلا فقلنا أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها شيء واحد وسميت نخلة بجميع صفاتها فكذلك الله وله المثل الأعلى بجميع صفاته إله واحد لا نقول أنه قد كان فى وقت من الأوقات ولا يعلم حتى خلق له علمـــا ولكن نقول لم يزل عالما قادرا مالكا لأمتى ولا كيف ومما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذى ذكره المفسرون يدل على ذلك فإنهم ذكروا أسبابا :

أحدها : ماتقدم عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنعت لنا ربك فنزلت هذه السورة .

والثانى : أن عامر بن الطفيل قال للنبى صلى الله عليه وسلم إلام تدعونا إليه يامحمد ؟ قال إلى الله قال فصفه لى أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد فنزلت هذه السورة ، وروى ذلك عن ابن عباس من طريق أبى ظبيان وأبى صالح عنه .

والثالث : أن بعض اليهود قال ذلك قالوا من أى جنس هو وممن ورث

الدنيا ولمن يورثها فنزلت هذه السورة قاله قتادة والضحاك قال الضحاك وقتادة ومقاتل : جاء من أحبار اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك فإن الله أنزل نعته فى التوراة فأخبرنا به من أى شيء هو ومن أى جنس هو أمن ذهب أم من نحاس هو أم من صفر أم من حديد أم من فضة وهل يأكل ويشرب وممن ورث الدنيا ولمن يورثها فأنزل الله هذه السورة وهى نسبة الله خاصة .

والرابع : ماروى عن الضحاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم بسبعة أساقفة من بنى الحرث بن كعب منهم السيد والعاقب فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك من أى شيء هو؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن ربى ليس من شيء وهو بائن من الأشياء فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد) فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات وهل هو من مادة فبين الله تعالى أنه أحد ليس من جنس شيء من المخلوقات وأنه صمد من مادة بل هو صمد لم يلد ولم يولد وإذا نفى عنه أن يكون مولودا من مادة الوالد فلأن ينفى عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى فإن المولود من نظير مادته أكمل من مادة ماخلق من مادة أخرى كما خلق آدم من الطين فالمادة التى خلق منها أولاده أفضل من المادة التى خلق منها هو ولهذا كان خلقه أعجب ، فإذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيها وهذا كما أنه إذا كان منزها عن أن يكون أحد كفواً له فلأن يكون منزها عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى .

وهذا مما يبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد على النفى والإثبات ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن فالصمدية تثبت الكمال المنافى للنقائص والأحدية تثبت الانفراد بذلك ، وكذلك إذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التى هى أشرف المواد فلأن ينزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بالطريق الأولى والأحرى وإذا نزه نفسه عن أن

يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن ينزه عن أن يخرج منه فضلات لاتصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأحرى والإنسان يخرج منه مادة الولد ويخرج منه مادة غير الولد كما يخلق من عرقه ورطوبته القمل والدود وغير ذلك ، ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك .

وقد نزه الله أهل الجنة عن أن يخرج منهم شيء من ذلك وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لايبولون ولايتغوطون ولايبصقون ولايتمخطون، وأنه يخرج منهم مثل رشح المسك وأنهم يجامعون بذكر لايخنى وشهوة لاتنقطع ولا منى وإذا اشتهى أحدهم الولد كان حمله ووضعه فى زمن يسير فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له ولد يخرج منه شيء من الأشياء كما يخرج من غيره من المخلوقات وهذا أيضا من تمام معنى الصمد كما سبق فى تفسيره أنه الذى لايخرج منه شيء وكذلك تنزيه نفسه عن أن يولد فلايكون من مثله تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأولى والأحرى وقد تقدم فى حـــديث أبى بن كعب أنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا يورث ، والله تعالى لايموت ولا يورث وهذا رد لقول اليهود بمن ورث الدنيا ولمن يورثها .

وكذلك ما نقل من سؤال النصارى صف لنا ربك من أى شيء هو فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن ربى ليس من شيء وهو بائن من الأشياء ، وكذلك سؤال المشركين واليهود أمن فضةهو أم من ذهب هو أم من حديد؟ وذلك لأن هؤلاء عهدوا الآلهة التى يعبدونها من دون الله يكون لها مواد صارت منها فعباد الأوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضة وحديد وغير ذلك وعباد البشر سواء كان البشر لم يأمروهم بعبادتهم أو أمروهم بعبادتهم كالذين يعبدون المسيح وعزيرا وكقوم فرعون الذين قال لهم أنا ربكم الأعلى وماعلمت لكم من إله غيرى وقال لموسى لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين .

وكالذى آتاه الله نصيبا من الملك الذى حاج إبراهيم فى ربه إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، وكالرجل الذى يدعى إلهية وما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال ، وكالذين قالوا (لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) وقد قال غير واحد من السلف إن هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم وذلك أول ما عبدت الأصنام وأن هذه الأصنام صارت إلى العرب .

وقد ذكر ذلك البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال صارت الأوثان التى فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت ، ونوح أقام فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى التوحيد وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت ذلك فى الصحيح ومحمد خاتم الرسل وكلا المرسلين بعث إلى مشركين يعبدون هذه الأصنام التى صورت على صورة الصالحين من البشر والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين .

وكذلك المشركين من أهل الكتاب ومن مبتدعة هذه الأمة وضلالها هذا غاية شركهم فإن النصارى يصورون فى الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى وأمه مثل مارى جرجس وغيره من القداديس ويعبدون تلك الصور ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين تارة بأن يتمثل الشيطان فى صورة ذلك الشخص الذى يدعى ويعبد

ليظن داعيه أنه قد أتى ويظن أن الله صور ملكا على صورته فإن النصرانى مثلا يدعو فى الأسر وغيره مارى جرجس أو غيره فيراه قد أتاه فى الهواء وكذلك غيره وقد سألوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد فى هذه الأماكن فقال هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه وإنما تلك شياطين أضلت المشركين .

وهكذا يحسب كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذى يعظمه وهو ميت أو يستغيث به عند قبره ويسأله وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك ويرى ذلك الشخص قد أتاه فى الهواء ودفع عنه بعض مايكره أوكلمه ببعض ماسأله عنه ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حيا حتى إنى أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى الشيخ نفسه الذى استغاثوا به وقد رأوه أتاهم فى الهواء فيذكرون ذلك له هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ .

فتارة يكون الشيخ نفسه لم يعلم بتلك القضية فإن كان يحب الرياسة سكت وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال : هذا ملك صوره الله على صورتى وجعل هذا من كرامات الصالحين وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ومتخذهم أربابا وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم ولهذا عرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعباد لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصى مريديه يقول إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بى ويستنجدنى ويستوصى ويقول : أنا أفعل بعد موتى ما كنت أفعل فى حياتى وهو لايعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله وتضل أتباعه فتحسن لهم الإشراك بالله ودعاء غير الله والاستغاثة بغير الله وأنها قد تلقى فى قلبه إنا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم فى حياتك فيظن هذا من خطاب إلهى ألقى إليه فيأمر أصحابه بذلك .

واعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه فى حياته بأنواع الخدم مثل خطاب أصحابه المستغيثين به وإعانتهم وغير ذلك فلما مات صاروا يأتون أحدهم فى صورة الشيخ ويشعرونه أنه لم يمت ويرسلون إلى أصحابه رسائل بخطاب وقد كان يجتمع بى بعض أتباع هذا الشيخ وكان فيه زهد وعبادة وكان يحبنى ويحب هذا الشيخ ويظن أن هذا من الكرامات وأن الشيخ لم يمت وذكر إلى الكلام الذى أرسله إليه بعد موته فقرأه فإذا هو كلام الشياطين بعينه .

وقد ذكر لى غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بى فرأونى فى الهواء قد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد مثل من أحاط بهم النصارى الأرمن ليأخذوه وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه ونحو ذلك فذكرت لهم أنى ما دريت بما جرى أصلا وحلفت لهم حتى لا يظنوا أنى كتمت ذلك كما تكتم الكرامات وأنا قد علمت أن الذى فعلوه ليس بمشروع بل هو شرك وبدعة ثم تبين لى فيما بعد وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به .

وحكى لى غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك واستفاض هذا حتى عرف أن هذا من الشياطين تغوى الإنسان بحسب الإمكان فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته فى الشرك الظاهر والكفر المحض فأمرته أن لا يذكر الله وأن يسجد للشيطان ويذبح له وأمرته يأكل الميتة والدم وفعل الفواحش وهذا يجرى كثيرا فى بلاد الكفر المحض وبلاد فيها كفر وإسلام ضعيف ويجرى فى بعض مدائن الإسلام فى المواضع التى يضعف إيمان أصحابها حتى قد جرى ذلك فى مصر والشام على أنواع يطول وصفها وهو فى أرض الشرق قبل ظهور الإسلام فى التتار كثير جدا وكلما ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم وإن كان مسلما يختار الفواحش والظلم أعانته على الظلم والفواحش وهذا كثير جدا أكثر من الذى

قبله فى البلاد التى فى أهلها إســـلام وجاهلية وبر وفجور وإن كان الشيخ فيه إسلام وديانة ولكنه عنده قلة معرفة بحقيقة مابعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات وهو لايعرف كمال الولاية وأنها الإيمان والتقوى واتباع الرسول باطنا وظاهرا أو يعرف ذلك مجملا ولايعرف من حقائق الإيمان الباطن وشرائع الإسلام الظاهرة مايفرق به بين الأحوال الرحمانية وبين النفسانية والشيطانية كما أن الرؤيا ثلاثة أقسام رؤيا من الله ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام ورؤيا من الشيطان فكذلك الأحوال فإذا كان عنده قلة معرفة بحقيقة دين محمد صلى الله عليه وسلم أمرته الشياطين بأمر لاينكره فتارة يحملون أحدهم فى الهواء ويقفون به بعرفات ثم يعيدونه إلى بلده وهو لابس ثيابه لم يحرم حين حاذى المواقيت ولا كشف رأسه ولاتجرد عما يتجرد عنه المحرم ولايدعونه بعد الوقوف يطوف طواف الإفاضة ويرمى الجمار ويكمل حجه بل يظن أن مجرد الوقوف كما فعل به عبادة وهذا من قلة علمه بدين الإسلام ولو علم دين الإسلام لعلم أن هذا الذى فعله ليس عبادة لله وإلا من استحل هذا فهو مرتد يجب قتله .

بل اتفق المسلمون على أنه يجب الإحرام عند الميقات ولايجوز للإنسان المحرم اللبس فى الإحرام إلا من عذر ، وأنه لايكتفى بالوقوف بل لابد من طواف الإفاضة باتفاق المسلمين بل وعليه أن يفيض إلى المشعر الحرام ويرمى جمرة العقبة وهذا مما تنوزع فيه هل هو ركن أو واجب يجبره دم ، وعليه أيضا رمى الجمار أيام منى باتفاق المسلمين وقد تحمل أحدهم الجن فتزوره بيت المقدس وغيره وتطير به فى الهواء وتمشى به فى الماء وقد تريه أنه قد ذهب به إلى مدينة الأولياء وربما أرته أنه يأكل من ثمار الجنة ويشرب من أنهارها .

وهذا كله وأمثاله مما أعرفه قد وقع لمن أعرفه لكن هذا باب طويل ليس هذا موضع بسطه وإنما المقصود أن أصل الشرك فى العالم كان من عبادة البشر الصالحين وعبدوا تماثيلهم وهم المقصودون ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب إما الشمس وإما القمر وإما غيرهما وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب ، وشرك قوام إبراهيم والله أعلم كان من هذا أو كان بعضه من هذا ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن وضعت الأصنام لأجلهم وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تعبد لذاتها بل لأسباب اقتضت ذلك وشرك العرب كان أعظمه الأول وكان فيه من الجميع فإن عمرو بن لحى هو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع ويدفعون بها المضار فصنع مثل ذلك فى مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش وكان هو سيد خزاعة .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار أى أمعاءه » وهو أول من غير دين إبراهيم وسيب السوائب وبحر البحيرة وكذلك والله أعلم شرك قوم نوح وإن كان مبدؤه من عبادة الصالحين فالشيطان يجر الناس من هذا إلى غيره لكن هذا أقرب إلى الناس لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه فيعكفون على قبره ويقصدون ذلك منه فتارة يسألونه وتارة يسألون الله به ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه فى المساجد والبيوت .

ولما كان هذا مبدأ الشرك سد النبى صلى الله عليه وسلم هذا الباب كما سد باب الشرك بالكواكب ، ففى صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وفى الصحيحين عنه أنه صلى الله عليه وسلم ذكر له كنيسة بأرض الحبشة

وذكر من حسنها وتصاوير فيها فقال « إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة » وفى الصحيحين عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم فى مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مافعلوا » قالت عائشة ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا .

وفى مسند أحمد وصحيح أبى حاتم عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » وفى سنن أبى داود وغيره عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « لاتتخذوا قبرى عيدا وصلوا على حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى » .

وفى موطأ مالك عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفى صحيح مسلم عن أبى الهياج الأسدى قال قال لى على بن أبى طالب رضى الله عنه ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن لا أدع قبرا مشرفا إلا سويته ولا تمثالا إلا طمسته فأمره بمحو التمثالين الصورة الممثلة على صورة الميت والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره فإن الشرك يحصل بهذا وبهذا .

وقد ثبت عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان فى سفر فرأى قوما ينتابون مكانا للصلاة فقال ماهذا فقالوا هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنما هلك من كان قبلكم بهذا أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد من أدركته الصلاة فليصل وإلا فليمض ، وبلغه أن قوما يذهبون إلى الشجرة التى بايع النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه تحتها فأمر بقطعها وأرسل إليه أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال وعنده مصحف فيه أخبار ماسيكون وأنهم إذا أجدبوا كشفوا عن القبر فمطروا فأرسل إليه عمر يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبرا ويدفنه بالليل فى واحد منها لئلا يعرفه الناس لئلا يفتتنوا به ، فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله وإن لم يبن عليها مسجد لكان بناء المساجد عليها أعظم .

كذلك قال العلماء يحرم بناء المساجد على القبور ويجب هدم كل مسجد بنى على قبر، وإن كان الميت قد قبر فى مسجد وقد طال مكثه سوى القبر حتى لاتظهر صورته فإن الشرك إنما يحصل إذا ظهرت صورته ولهذا كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أولا مقبرة للمشركين وفيها نخل وخرب فأمر بالقبور فنبشت وبالنخل فقطع وبالخرب فسويت فخرج عن أن يكون مقبرة فصار مسجداً .

ولما كان اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها محرما ولم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولم يكن يعرف قط مسجد علي قبر وكان الخليل عليه السلام فى المغارة التى دفن فيها وهى مسدودة لا أحد يدخل إليها ولا تشد الصحابة الرحال لا إليه ولاإلى غيره من المقابر لأن فى الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا» .

فكان يأتى من يأتى منهم إلى المسجد الأقصى يصلون فيه ثم يرجعون لا يأتون مغارة الخليل ولا غيرها وكانت مغارة الخليل مسدودة حتى استولى النصارى على الشام فى أواخر المائة الرابعة ففتحوا الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذه بعض الناس مسجداً وأهل العلم ينكرون ذلك والذى يرويه بعضهم فى حديث الإسراء أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم هذه طيبة أنزل فصل فنزل فصلى هذا مكان أبيك أنزل فصلى كذب موضوع لم يصلى النبى صلى الله عليه وسلم وتلك الليلة إلا فى المسجد الأقصى خاصة كما ثبت ذلك فى الصحيح ولا نزل إلا فيه .

ولهذا لما قدم الشام من الصحابة من لا يحصى عددهم إلا الله وقدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس وبعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية شرط عليهم الشروط المعروفة وقدمها مرة ثالثة حتى وصل

إلى سرغ ومعه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فلم يذهب أحد منهم إلى مغارة الخليل ولا غيرها من آثار الأنبياء التى بالشام لا ببيت المقدس ولا بدمشق ولا غير ذلك مثل الآثار الثلاثة التى بجبل قاسيون فى غربية الربوة المضافة إلى عيسى عليه السلام وفى شرقية المقام المضاف إلى الخليل عليه السلام وفى وسطه وأعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله قابيل .

فهذه البقاع وأمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها ولا يزورونها ولا يرجون منها بركة فإنها محل الشرك ولهذا توجد فيها الشياطين كثيراً وقد رآهم غير واحد على صورة الإنس ويقولون لهم رجال الغيب يظنون أنهم رجال من الإنس غائبين عن الأبصار وإنما هم جن والجن يسمون رجالا كما قال الله تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذن برجال من الجن فزادوهم رهقاً) والإنس سموا إنساً لأنهم يؤنسون أى يرون كما قال (إنى آنست ناراً) أى رأيتها ، والجن سموا جناً لاجتنانهم يجتنون عن الأبصار أى يستترون كما قال تعالى : (فلما جن عليه الليل) أى استولى عليه فغطاه وستره ، وليس أحد من الإنس يستتر دائماً عن أبصار الإنس وإنما يقع هذا لبعض الإنس فى بعض الأحوال تارة على وجه الكرامة له وتارة يكون من باب السحر وعمل الشياطين ، ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر .

والمقصود هنا أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يبنوا قط على قبر نبى ولا رجل صالح مسجداً ولا جعلوه مشهداً ومزاراً ولا على شىء من آثار الأنبياء مثل مكان نزل فيه أو صلى فيه أو فعل شيئاً من ذلك لم يكونوا يقصدون بناء مسجد لأجل آثار الأنبياء والصالحين ولم يكن جمهورهم يقصدون الصلاة فى مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه بل نزل فيه أو صلى فيه اتفاقاً بل كان أئمتهم كعمر بن الخطاب وغيره ينهى عن قصد الصلاة

فى مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفاقاً لا قصداً .

وإنما نقل عن ابن عمر خاصة أنه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل حيث نزل ويصلى حيث صلى وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل بل حصل اتفاقاً وكان ابن عمر رضى الله عنهما رجلا صالحا شديد الاتباع فرأى هذا من الاتباع وأما أبوه وسائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان وعلى وسائر العشرة وغيرهم مثل ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب فلم يكونوا يفعلون ما فعل ابن عمر وقال الجمهور أصح .

وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذى فعل لأجل أنه فعل فإذا قصد الصلاة والعبادة فى مكان معين كان قصد الصلاة والعبادة فى ذلك المكان متابعة له وأما إذا لم يقصد تلك البقعة فإن قصدها يكون مخالفة لامتابعة له مثال الأول لما قصد الوقوف والذكر والدعاء بعرفة ومزدلفة وبين الجمرتين كان قصد تلك البقاع متابعة له وكذلك لما طاف وصلى خلف المقام ركعتين كان فعل ذلك متابعة له وكذلك لما صعد على الصفا والمروة للذكر والدعاء كان قصد ذلك متابعة له .

وقد كان سلمة بن الأكوع يتحرى الصلاة عند الاسطوانة قال لأنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها فلما رآه يقصد تلك البقعة لأجل الصلاة كان ذلك القصد للصلاة متابعة كذلك لما أراد عتبان ومالك أن يبنى مسجدا لما عمى فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إنى أحب أن تأتينى تصلى فى منزلى فاتخذه مصلى وفى رواية فقال تعالى نخط لى مسجدا فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه وفى رواية فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذنت له فلم يجلس حتى

دخل البيت فقال أين تحب أن أصلى من بيتك فأشرت له إلى ناحية من البيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمنا وراءه فصلى ركعتين ثم سلم الحديث .

فإنه قصد أن يبنى مسجدا وأحب أن يكون أول من يصلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم وأن يبنيه فى الموضع الذى صلى فيه المقصود كان بناء المسجد وأراد أن يصلى النبى صلى الله عليه وسلم فى المكان الذى يبنيه فكانت الصلاة مقصودة لأجل المسجد لم يكن بناء المسجد مقصوداً لأجل كونه صلى فيه اتفاقا ، وهذا المكان مكان قصد النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة فيه ليكون مسجداً فصار قصد الصلاة فيه متابعة له بخلاف ما اتفق أنه صلى فيه بغير قصد وكذلك قصد يوم الإثنين والخميس بالصوم متابعة لأنه قصد صوم هذين اليومين .

وقال فى الحديث الصحيح أنه تفتح أبواب الجنة فى كل خميس واثنين فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال انظروا هذين حتى يصطلحا ، وكذلك قصد إتيان مسجد قباء متابعة له فإنه قد ثبت عنه فى الصحيحين أنه كان يأتى قباء كل سبت راكبا وماشياً وذلك أن الله أنزل عليه (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) وكان مسجده هو الأحق بهذا الوصف ، وقد ثبت فى الصحيح أنه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال هو مسجدى هذا يريد أنه أكمل فى هذا الوصف من مسجد قباء ومسجد قباء أيضا أسس على التقوى وبسببه الآية ولهذا قال (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) .

وكان أهل قباء مع الوضوء والغسل يستنجون بالماء تعلموا ذلك من جيرانهم اليهود ولم تكن العرب تفعل ذلك فأراد النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يظن ظان أن ذاك هو الذى أسس على التقوى دون مسجده فذكر أن مسجده أحق بأن يكون هو المؤسس على التقوي فقوله لمسجد

أسس على التقوى يتناول مسجده ومسجد قباء ويتناول كل مسجد أسس على التقوى بخلاف مساجد الضرار .

ولهذا كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشبه ذلك ويرون العتيق أفضل من الجديد لأن العتيق أبعد عن أن يكون بنى ضرارا من الجديد الذى يخاف ذلك فيه وعتق المسجد مما يحمد به ولهذا قال (ثم محلها إلى البيت العتيق) وقال (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة) فإن قدمه يقتضى كثرة العبادة فيه أيضاً وذلك يقتضى زيادة فضله ولهذا لم يستحب علماء السلف من أهل المدينة وغيرها قصد شيء من المساجد والمزارات التى بالمدينة وماحولها بعد مسجد النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلا مسجد قباء لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد مسجداً بعينه يذهب إليه هو .

وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الأنصار مسجد لكن ليس فى قصده دون أمثاله فضيلة بخلاف مسجدى قباء فإنه أول مسجد بنى بالمدينة على الإطلاق وقد قصده الرسول بالذهاب إليه وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من توضأ فى بيته ثم أتى مسجد قباء لايريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة » ومع هذا فلا يسافر إليه لكن إذا كان الإنسان بالمدينة أتاه ولا يقصد إنشاء السفر إليه بل يقصد إنشاء السفر إلى المساجد الثلاثة لقوله صلى الله عليه وسلم « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا » .

ولهذا لو نذر السفر إلى مسجد قباء لم يوف بنذره عند الأئمة الأربعة وغيرهم بخلاف المسجد الحرام فإنه يجب الوفاء بالنذر إليه باتفاقهم، وكذلك مسجد المدينة وبيت المقدس فى أصح قوليهم وهو مذهب مالك وأحمد والشافعى فى أحد قوليه وفى الآخر وهو قول أبى حنيفة ليس عليه ذلك لكنه جائز ومستحب لأن من أصله أنه لايجب بالنذر إلا ما كان واجبا بالشرع والأكثرون يقولون يجب بالنذر كل ما كان طاعة لله كما ثبت فى صحيح البخارى عن عائشة

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

ويستحب زيارة قبور البقيع وشهداء أحد للدعاء لهم والاستغفار لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصد ذلك مع أن هذا مشروع لجميع موتى المسلمين كما يستحب السلام عليهم والدعاء لهم والاستغفار وزيارة القبور بهذا القصد مستحبة وسواء فى ذلك قبور الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وكان عبد الله بن عمر إذا دخل المسجد يقول السلام عليك يارسول الله السلام عليك ياأبا بكر السلام عليك ياأبه ثم ينصرف .

وأما زيارة قبور الأنبياء والصالحين لأجل طلب الحاجات منهم أودعائهم والإقسام بهم على الله أو ظن أن الدعاء أو الصلاة عند قبورهم أفضل منه فى المساجد والبيوت فهذا ضلال وشرك وبدعة باتفاق أئمة المسلمين ولم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك ولا كانوا إذا سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم يقفون يدعون لأنفسهم ، ولهذا كره ذلك مالك وغيره من العلماء لأنها من البدع التى لم يفعلها السلف .

واتفق العلماء الأربعة وغيرهم من السلف على أنه إذا أراد أن يدعو يستقبل القبلة ولا يستقبل قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأما إذا سلم عليه فأكثرهم قالوا يستقبل القبر مالك والشافعى وأحمد ، وقال أبو حنيفة : بل يستقبل القبلة أيضا ويكون القبر عن يساره وقيل بل يستدبر القبلة .

ومما يبين هذا الأصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر هو وأبو بكر ذهبا إلى الغار الذى بجبل ثور ولم يكن على طريقهما بالمدينة فإنه من ناحية اليمن والمدينة من ناحية الشام ولكن اختبآ فيه ثلاثاً لينقطع خبرهما عن المشركين فلا يعرفون أين ذهبا فإن المشركين كانوا طالبين لهما وقد بذلوا فى كل واحد منهما ديته لمن يأتى به وكانوا يقصدون منع النبي صلى

الله عليه وسلم أن يصل إلى أصحابه بالمدينة وأن لايخرج من مكة بل لما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكة فلو سلك الطريق ابتداء لأدركوه فأقام بالغار ثلاثا لأجل ذلك فلو أراد المسافر من مكة إلى المدينة أن يذهب إلى الغار ثم يرجع لم يكن ذلك مستحبا بل مكروها والنبي صلى الله عليه وسلم فى الهجرة سلك طريق الساحل وهى طويلة وفيها دورة وأما فى عمره وحجته فكان يسلك الوسط وهو أقرب إلى مكة فسلك فى الهجرة طريق الساحل لأنها كانت أبعد عن قصد المشركين فإن الطريق الوسطى كانت أقرب إلى المدينة فيظنون أنه سلكها كما كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما قسم غنائم حنين بالجعرانة اعتمر منها ولما صده المشركون عن مكة حل بالحديبية وكان قد أنشأ الإحرام بالعمرة من ميقات المدينة ذى الحليفة .

ولما اعتمر من العام القابل عمرة القضية اعتمر من ذى الحليفة ولم يدخل الكعبة فى عمره ولا حجته وإنما دخلها عام الفتح وكان بها صور مصورة فلم يدخلها حتى محيت تلك الصور وصلى بها ركعتين وصلى يوم الفتح ثمان ركعات وقت الضحى كما روت أم هانىء ولكن لم يقصد الصلاة وقت الضحى إلا لسبب مثل أن يقدم من سفر فيدخل المسجد فيصلى فيه ركعتين ومثل أن يشغله نوم أو مرض عن قيام الليل فيصلى بالنهار ثنتى عشرة ركعة وكان يصلى بالليل إحدى عشرة ركعة فصلى ثنتى عشرة ركعة شفعا لفوات وقت الوتر فإنه صلى الله عليه وسلم قال المغرب وتر صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل ، وقال اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا وقال صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة .

والمأثور عن السلف أنهم إذا ناموا عن الوتر كانوا يوترون قبل صلاة الفجر ولا يؤخرونه إلى ما بعد الصلاة ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ماصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط وإنى

لأسبحها وإن كان ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه أوصى بركعتى الضحى لأبى هريرة ولأبى الدرداء وفيها أحاديث لكن صلاته ثمان ركعات يوم الفتح جعلها بعض العلماء صلاة الضحى .

وقال آخرون : لم يصلها إلا يوم الفتح فعلم أنه صلاها لأجل الفتح وكانوا يستحبون عند فتح مدينة أن يصلى الإمام ثمانى ركعات شكراً لله ويسمونها صلاة الفتح قالوا لأن الاتباع يعتبر فيه القصد والنبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد الصلاة لأجل الوقت ولو قصد ذلك لصلى كل يوم أو غالب الأيام كما كان يصلى ركعتى الفجر كل يوم .

وكذلك كان يصلى بعد الظهر ركعتين وقبلها ركعتين أو أربعا ولما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاهما بعد العصر وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما نام هو وأصحابه عن صلاة الفجر فى غزوة خيبر فصلوا بعد طلوع الشمس ركعتين ثم ركعتين لم يقل أحد أن هذه الصلاة فى هذا الوقت سنة دائما لأنهم إنما صلوها قضاء لكونهم ناموا عن الصلاة ولما فاتته العصر فى بعض أيام الخندق فصلاها بعد ماغربت الشمس .

وروى أن الظهر فاتته أيضا فصلى الظهر ثم العصر ثم المغرب لم يقل أحد أنه يستحب أن يصلى بين العشاءين أحد عشر ركعات لأن ذلك كان قضاء بل ولا نقل عنه أحد أنه خص مابين العشاءين بصلاة ، وقوله تعالى : (ناشئة الليل) عند أكثر العلماء هو إذا قام الرجل بعد نوم ليس هو أول الليل وهذا هو الصواب لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم هكذا كان يصلى بالليل والأحاديث بذلك متواترة عنه كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشاءين .

وكذلك أكله ماكان يجد من الطعام ولبسه الذى يوجد بمدينته طيبة

مخلوقا فيها ومجلوبا إليها من اليمن وغيرها لأنه هو الذى يسره الله له فأكله التمر وخبز الشعير وفاكهته الرطب والبطيخ الأخضر والقثاء، ولبس ثياب اليمن لأن ذلك هو كان الميسر فى بلده من الطعام والثياب لالخصوص ذلك فمن كان ببلد آخر وقوتهم البر والذرة وفاكهتهم العنب والرمان ونحو ذلك وثيابهم مما ينسج بغير اليمن لم يكن إذا قصد أن يتكلف من القوت والفاكهة واللباس ماليس فى بلده بل يتعسر عليهم متبعا للرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان ذلك الذى يتكلفه تمرا أورطبا أوخبز شعير فعلم أنه لا بد فى المتابعة للنبى صلى الله عليه وسلم من اعتبار القصد والنية « فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

فعلم أن الذى عليه جمهور الصحابة وأكابرهم هو الصحيح ومع هذا فابن عمر رضى الله عنهما لم يكن يقصد أن يصلى إلا فى مكان صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يقصد إلى الصلاة فى موضع نزوله ومقامه ولا كان أحد من الصحابة يذهب إلى الغار المذكور فى القرآن للزيارة والصلاة فيه وإن كان النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه أقاما به ثلاثا يصلون فيه الصلوات الخمس ولا كانوا أيضا يذهبون إلى حراء وهو المكان الذى كان يتعبد فيه قبل النبوة وفيه نزل عليه الوحى أولا وكان هذا مكان يتعبدون فيه قبل الإسلام فإن حراء أعلى جبل كان هناك فلما جاء الإسلام ذهب النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة مرات بعد أن أقام بها قبل الهجرة بضع عشرة سنة ومع هذا فلم يكن هو ولا أصحابه يذهبون إلى حراء .

ولما حج النبى صلى الله عليه وسلم استلم الركنين اليمانيين ولم يستلم الشاميين لأنهما لم يبنيا على قواعد إبراهيم فإن أكثر الحجر من البيت والحجر الأسود استلمه وقبله واليمانى استلمه ولم يقبله وصلى بمقام إبراهيم ولم يستلمه ولم يقبله فدل ذلك على أن التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة ودل على أن استلام مقام إبراهيم وتقبيله

ليس بسنة وإذا كان هذا نفس الكعبة ونفس مقام إبراهيم بها فمعلوم أن جميع المساجد حرمتها دون الكعبة وأن مقام إبراهيم بالشام وغيرها وسائر مقامات الأنبياء دون المقام الذى قال الله فيه : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) .

فعلم أن سائر المقامات لا تقصد للصلاة فيها كما لا يحج إلى سائر المشاهد ولا يتمسح بها ولا يقبل شيء من مقامات الأنبياء ولا المساجد ولا الصخرة ولا غيرها ولا يقبل وجه الأرض إلا الحجر الأسود .

وأيضا فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل بمسجد بمكة إلا المسجد الحرام ولم يأت للعبادات إلى المشاعر منى ومزدلفة وعرفة فلهذا كان أئمة العلماء على أنه لا يستحب أن يقصد مسجدا بمكة للصلاة غير المسجد الحرام ولا تقصد بقعة للزيارة غير المشاعر التى قصدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا كان هذا فى آثارهم فكيف بالمقابر التى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخذها مساجد وأخبر أنهم شرار الخلق يوم القيامة ودين الإسلام أنه لا تقصد بقعة للصلاة إلا أن تكون مسجدا فقط ولهذا مشاعر الحج غير المسجد الحرام تقصد للنسك لا للصلاة فلا صلاة بعرفة وإنما صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر يوم عرفة بعرفة خطب بها ثم صلى ثم بعد الصلاة ذهب إلى عرفات فوقف بها .

وكذلك يذكر الله ويدعى بعرفات وبمزدلفة على قزح وبالصفا والمروة وبين الجمرات وعند الرمى ولا تقصد هذه البقاع للصلاة وأما غير المساجد ومشاعر الحج فلا تقصد بقعة لا للصلاة ولا للذكر ولا للدعاء بل يصلى المسلم حيث أدركته الصلاة إلا حيث نهى ويذكر الله ويدعوه حيث تيسر من غير تخصيص بقعة بذلك وإذا اتخذ بقعة لذلك كالمشاهد نهى عن ذلك كما نهى عن الصلاة فى المقبرة إلا ما يفعله الرجل عند السلام على الميت من الدعاء له وللمسلمين كما يفعل مثل ذلك فى الصلاة على الجنازة فإن زيارة قبر

المؤمن من جنس الصلاة على جنازته يفعل فى هذا من جنس مايفعل فى هذا ويقصد بالدعاء هنا مايقصد بالدعاء هنا .

ومما يشبه هذا أن الأنصار بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بالوادى الذى وراء جمرة العقبة لأنه مكان منخفض قريب من منى يستتر من فيه فإن السبعين الأنصار نواقد حجوا مع قومهم المشركين ومازال الناس يحجون إلى مكة قبل الإسلام وبعده فجاؤا مع قومهم إلى منى لأجل الحج ثم ذهبوا بالليل إلى ذلك المكان لقربه وستره لالفضيلة فيه ولم يقصدوه لفضيلة تخصه بعينه .

ولهذا لما حج النبى صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه لم يذهبوا إليه ولازاروه وقد بنى هناك مسجد وهو محدث وكل مسجد بمكة وما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث ومنى نفسها لم يكن بها على عهد النبى صلى الله عليه وسلم مسجد مبنى ولكن قال منى مناخ لمن سبق فنزل بها المسلمون وكان يصلى بالمسلمين بمنى وغير منى وكذلك خلفاؤه من بعده واجتماع الحجاج بمنى أكثر من اجتماعهم بغيرها فإنهم يقيمون بها أربعاً وكان النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يصلون بالناس بمنى وغير منى وكانوا يقصرون الصلاة بمنى وعرفة ومزدلفة ويجمعون بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء بمزدلفة ويصلى بصلاتهم جميع الحجاج من أهل مكة وغير أهل مكة كلهم يقصرون الصلاة بالمشاعر وكلهم يجمعون بعرفة ومزدلفة .

وقد تنازع العلماء فى أهل مكة ونحوهم هل يقصرون أو يجمعون فقيل لايقصرون ولا يجمعون كما يقول ذلك من يقول من أصحاب الشافعى وأحمد وقيل يجمعون ولا يقصرون كما يقول ذلك أبوحنيفة وأحمد ومن وافقه من أصحابه وأصحاب الشافعى وقيل يجمعون ويقصرون كما قال ذلك مالك وابن عيينة وإسحق بن راهويه وبعض أصحاب أحمد وغيرهم .

وهذا هو الصواب بلا ريب فإنه الذى فعله أهل مكة خلف النبى صلى الله عليه وسلم بلا ريب ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم قط ولا أبو بكر ولا عمر بمنى ولا عرفة ولا مزدلفة ياأهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر ولكن ثبت أن عمر قال ذلك فى جوف مكة وكذلك فى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك فى جوف مكة فى غزوة الفتح وهذا من أقوى الأدلة على أن القصر مشروع لكل مسافر ولو كان سفره بريدا فإن عرفة من مكة بريد أربع فراسخ ولم يصلى النبى صلى الله عليه وسلم ولا خلفاؤه بمكة صلاة عيد بل ولا صلى فى أسفاره قط صلاة العيد ولا صلى بهم فى أسفاره صلاة جمعة يخطب ثم يصلى ركعتين بل كان يصلى يوم الجمعة فى السفر ركعتين كما يصلى فى سائر الأيام .

وكذلك لما صلى بهم الظهر والعصر بعرفة صلى ركعتين كصلاته فى سائر الأيام ولم ينقل أحد أنه جهر بالقراءة يوم الجمعة فى السفر لا بعرفة ولا بغيرها ولا أنه خطب بغير عرفة يوم الجمعة فى السفر فعلم أن الصواب ماعليه سلف الأمة وجماهيرها من الأئمة الأربعة وغيرهم من أن المسافر لا يصلى جمعة ولا غيرها وجمهورهم أيضا على أنه لا يصلى عيدا وهو قول مالك وأبى حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين .

وهذا هو الصواب أيضا فإن النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاءه لم يكونوا يصلون العيد إلا فى المقام لا فى السفر ولم يكن يصلى صلاة العيد إلا فى مكان واحد مع الإمام يخرج بهم إلى الصحراء فيصلى هناك فيصلى المسلمون كلهم خلفه صلاة العيد كما يصلون الجمعة ولم يكن أحد من المسلمين يصلى صلاة عيد فى مسجد قبيلة ولا بيته كما لم يكونوا يصلون جمعة فى مساجد القبائل ولا كان أحد منهم بمكة يوم النحر يصلى صلاة عيد على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه بل عيدهم بمنى بعد إفاضتهم من المشعر الحرام ورمى جمرة العقبة لهم كصلاة العيد لسائر أهل الأمصار يرمون ثم ينحرون والنبى صلى الله عليه

وسلم لما أفاض من منى نزل بالمحصب فاختلف أصحابه هل التحصيب سنة لاختلافهم فى قصده هل قصد النزول به أو نزل به لأنه كان أسمح لخروجه.

وهذا مما يبين أن المقاصد كانت معتبرة عندهم فى المتابعة ولما اعتمر عمرة القضية وكانت مكة مع المشركين لم تفتح بعد وكان المشركون قد قالوا يقدم عليكم قوم قد وهنتهم يثرب وقعد المشركون خلف قعيقعان وهو جبل المروة ينظرون إليهم فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يرملوا ثلاثة أشواط من الطواف ليرى المشركين جلدهم وقوتهم وروى أنه دعا لمن فعل ذلك ولم يرملوا بين الركنين لأن المشركين لم يكونوا يرونهم من ذلك الجانب فكان المقصود بالرمل إذ ذاك من جنس المقصود بالجهاد .

فظن بعض المتقدمين أنه ليس من النسك لأنه فعل لقصد وزال لكن ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما حجوا رملوا من الحجر الأسود إلى الحجر الأسود فكملوا الرمل بين الركنين وهذا قدر زائد على مافعلوه فى عمرة القضية وفعل ذلك فى حجة الوداع مع الأمن العام فإنه لم يحج معه إلا مؤمن فدل ذلك على أن الرمل صار من سنة الحج فإنه فعل أولا لمقصود الجهاد ثم شرع نسكا كما روى فى سعى هاجر وفى رمى الجمار وفى ذبح الكبش أنه فعل أولا لمقصود ثم شرعه الله نسكا وعبادة .

لكن هذا يكون إذا شرع الله ذلك وأمر به وليس لأحد أن يشرع مالم يشرعه الله كما لو قال قائل أنا أستحب الطواف بالصخرة سبعاً كما يطاف بالكعبة أو أستحب أن أتخذ من مقام موسى وعيسى مصلى كما أمر الله أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى ونحو ذلك لم يكن له ذلك لأن الله تعالى يختص مايختصه من الأعيان والأفعال بأحكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه أما المعنى يختص به لا يوجد بغيره على قول أكثر أهل العلم وأما لمحض تخصيص المشيئة على قول بعضهم كما خص الكعبة بأن يحج إليها ويطاف بها وكما خص عرفات

بالوقوف بها وكما خص منى برمى الجمار بها وكما خص الأشهر الحرم بتحريمها وكما خص شهر رمضان بصيامه وقيامه إلى أمثال ذلك .

وإبراهيم ومحمد كل منهما خليل الله فإنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم ياخير البرية قال ذاك إبراهيم فإبراهيم أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه وسلم وقوله ذاك إبراهيم تواضع منه فإنه قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال « أنا سيد ولد آدم ولا فخر آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة ولا فخر » .

إلى غير ذلك من النصوص المبينة أنه أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وإبراهيم هو الإمام الذى قال الله فيه : (إنى جاعلك للناس إماما) وهو الأمة أى القدوة الذى قال الله فيه : (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً) وهو الذى بوأه الله مكان البيت وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه وقد حرم الله الحرم على لسانه وإسمعيل نبأه معه وهو الذبيح الذى بذل نفسه لله وصبر على المحنة كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة فى غير هذا الموضع وأمه هاجر هى التى أطاعت الله ورسوله إبراهيم فى مقامها مع ابنها فى ذلك الوادى الذى لم يكن به أنيس كما قال الخليل : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) .

وكان لإبراهيم ولآل إبراهيم من محبة الله وعبادته والإيمان به وطاعته مالم يكن لغيرهم فخصهم الله بأن جعل لبيته الذى بنوه له خصائص لا توجد لغيره وجعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها ولا ريب أن الله شرع لإبراهيم السعى ورمى الجمار والوقوف بعرفات بعد ما كان من أمر هاجر وإسمعيل وقصة الذبح وغير ذلك ما كان كما شرع لمحمد الرمل فى الطواف حيث أمره أن ينادى فى الناس بحج البيت والحج مبناه على الذل والخضوع لله ولهذا خص باسم النسك والنسك فى اللغة العبادة .

قال الجوهرى : النسك العبادة والناسك العابد وقد نسك وتنسك أى تعبد ونسك بالضم أى صار ناسكا ثم خص الحج باسم النسك لأنه أدخل فى العبادة والذل لله من غيره ولهذا كان فيه من الأفعال مالا يقصد فيه إلا مجرد الذل لله والعبادة له كالسعى ورمى الجمار قال النبى صلى الله عليه وسلم «إنما جعل رمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله» رواه الترمذى وخص بذلك الذبح الفداء أيضا دون مطلق الذبح لأن إراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع والعبادة له ولهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان بل تأتى نار من السماء فتأكله ولهذا قال تعالى : (الذين قالوا لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) .

وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغنم ويكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وسع الله عليهم لكمال يقينهم وإخلاصهم وأنهم يقاتلون لله ولو أكلوا المغنم ويذبحون لله ولو أكلوا القربان ولهذا كان عباد الشيطان والأصنام يذبحون لها الذبائح أيضا فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ولا أن يسمى غير الله على الذبائح وحرم سبحانه ماذبح على النصب وهو ماذبح لغير الله وما سمى عليه غير اسم الله وإن قصد به اللحم لا القربان .

ولعن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من ذبح لغير الله ونهى عن ذبائح الجن وكانوا يذبحون للجن بل حرم الله مالم يذكر اسم الله عليه مطلقا كما دل على ذلك الكتاب والسنة فى غير موضع وقد قال تعالى : (فصل لربك وانحر) أى انحر لربك كما قال الخليل (إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

وقد قال هو وإسمعيل إذ يرفعان القواعد من البيت (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا) فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها كما قال تعالى : (ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) وقال : (ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) وقال : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) كما قال تعالى : (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) .

فالمقصود تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ماسواه بغاية العبودية له والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخلاص وهذه مسألة إبراهيم الخليل وهذا كله مما يبين أن عبادة القلوب هى الأصل كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

والنية والقصد هى عمل القلب فلابد فى المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم من اعتبار النية والقصد ومن هذا الباب أن النبى صلى الله عليه وسلم لما احتجم وأمر بالحجامة وقال فى الحديث الصحيح « شفاء أمتى فى شرطة محجم أو شربة عسل أوكية بنار وما أحب أن أكتوى » كان معلوما أن المقصود بالحجامة إخراج الدم الزائد الذى يضر البدن فهذا هو المقصود وخص الحجامة لأن البلاد الحارة يخرج الدم فيها إلى سطح البدن فيخرج بالحجامة فلهذا كانت الحجامة فى الحجاز ونحوه من البلاد الحارة يحصل بها مقصود استفراغ الدم وأما البلاد الباردة فالدم يغور فيها إلى العروق فيحتاجون إلى قطع العروق بالفصاد .

وهذا أمر معروف بالحس والتجربة فإنه فى زمان البرد تسخن الأجواف وتبرد الظواهر لأن شبيه الشيء منجذب إليه فإذا برد الهواء برد مايلاقيه

من الأبدان والأرض فيهرب الحر الذى فيها من البرد المضاد له إلى الأجواف فيسخن باطن الأرض وأجواف الحيوان ويأوى الحيوان فى الأكنان الدافية ولقوة الحرارة فى باطن الإنسان يأكل فى الشتاء وفى البلاد الباردة أكثر مما يأكل فى الصيف وفى البلاد الحارة لأن الحرارة تطبخ الطعام وتصرفه ويكون الماء النابع فى الشتاء سخنا لسخونة جوف الأرض والدم سخن فيكون فى جوف العروق لافى سطح الجلد فلو احتجم لم ينفعه ذلك بل قد يضره وفى الصيف والبلاد الحارة تسخن الظواهر فتكون البواطن باردة فلا ينهضم الطعام فيها كما ينهضم فى الشتاء ويكون الماء النابع بارداً لبرودة باطن الأرض وتظهر الحيوانات إلى البر أى لسخونة الهواء فهؤلاء قد لاينفعهم الفصاد بل قد يضرهم والحجامة أنفع لهم .

وقوله « شفاء أمتى » إشارة إلى من كان حينئذ من أمته وهم كانوا بالحجاز كما قال ما بين المشرق والمغرب قبلة لأن هذا كان قبلة أمتى حينئذ لأنهم كانوا بالمدينة وما حولها وهذا كما أنه فى آخر الأمر بعد أن فرض الحج سنة تسع أو سنة عشر وقت ثلاث مواقيت المدينة ولنجد وللشام ولما فتح اليمن وقت لهم يلملم ثم وقت ذات عرق لأهل العراق وكذا كما أنه فرض صدقة الفطر صاعا من تمر أوصاعا من شعير عن كل صغير وكبير ذكراً وأنثى من المسلمين وكان هذا هو الفرض على أهل المدينة لأن الشعير والتمر كان قوتهم .

ولهذا كان جماهير العلماء على أنه من اقتات الأرز والذرة ونحو ذلك يخرج من قوته وهو إحدى الروايتين عن أحمد وهل يجزيه أن يخرج التمر والشعير إذا لم يكن يقتاته فيه قولان للعلماء وكان الصحابة يرمون بالقوس العربية الطويلة التى تشبه قوس الندف وفتح الله لهم بها البلاد وقد رويت آثار فى كراهة الرمى بالقوس الفارسية عن بعض السلف لكونها كانت شعار الكفار فأما بعد أن اعتادها المسلمون وكثرت فيهم وهى فى أنفسها أنفع

فى الجهاد من تلك القوس فلا تكره فى أظهر قول العلماء أو قول أكثرهم لأن الله تعالى قال (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) .

والقوة فى هذا أبلغ بلا ريب والصحابة لم تكن هذه عندهم فعدلوا عنها إلى تلك بل لم يكن لهم غيرها فينظر فى قصدهم بالرمى أكان لحاجة إليها إذ ليس لهم غيرها أم كان لمعنى فيها ومن كره الرمى بها كرهه لمعنى لازم كما يكره الكفر وما يستلزم الكفر أم كرهها لكونها كانت من شعائر الكفار فكره التشبيه بهم وهذا كما أن الكفار من اليهود والنصارى إذا لبسوا ثوب الغيار من أصفر وأزرق نهى عن لباسه لما فيه من التشبه بهم وإن كان لو خلا عن ذلك لم يكره وفى بلاد لا يلبس هذه الملابس عندهم إلا الكفار فنهى عن لبسها والذين اعتادوا ذلك من المسلمين لا مفسدة عندهم فى لبسها .

ولهذا كره أحمد وغيره لباس السواد لما كان فى لباسه تشبه بمن يظلم أو يعين على الظلم وكره بيعه لمن يستعين بلبسه على الظلم فأما إذا لم يكن فيه مفسدة لم ينه عنه وكره من كره من الصحابة والتابعين بيع الأرض الخراجية لأن المشترى لها إذا أدى الخراج عنها أشبه أهل الذمة فى التزام الجزية فإن الخراج جزية الأرض وإن لم يؤدها ظلم الناس بإسقاط حقهم من الأرض لم يكرهوا بيعها لكونها وقفا فإن الوقف إنما منع من بيعه لأن ذلك يبطل الوقف ولهذا لا يباع ولا يوهب ولا يورث والأرض الخراجية تنتقل إلى الوارث باتفاق العلماء ويجوز هبتها والمتهب والمشترى يقوم فيها مقام البائع فيؤدى ما كان عليه من الخراج وليس فى بيعها مضرة لمستحق الخراج كما فى بيع الوقف .

وقد غلط كثير من الفقهاء فظنوا أنهم كرهوا بيعها لكونها وقفا واشتبه عليهم الأمر لأنهم رأوا الآثار مروية فى كراهة بيعها وقد عرفوا أن عمر جعلها فيئا لم يقسمها قط وذلك فى معنى الوقف فظنوا أن بيعها مكروه لهذا المعنى ولم يتأملوا حق التأمل فيرون أن هذا البيع ليس هو من جنس البيع

المنهى عنه فى الوقف فإن هذه يصرف مغلها إلى مستحقها قبل البيع وبعده وعلى حد واحد ليست كالدار التي إذا بيعت تعطل نفعها عن أهل الوقف وصارت للمشتري .

وأعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا مكة إنما كره بيع رباعها لكونها فتحت عنوة ولم تقسم أيضاً وهم قد قالوا مع جميع الناس أن الأرض العنوة التى جعلت أرضاً فيئاً يجوز بيع مساكنها ، والخراج إنما جعل على المزارع لا على المساكن فلو كانت مكة قد جعلت أرضها للمسلمين وجعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها كذلك فكيف ومكة أقرها النبى صلى الله عليه وسلم بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها ومزارعها ولم يقسمها ولم يضرب عليها خراجا .

ولهذا قال من قال أنها فتحت صلحاً ولا ريب أنها فتحت عنوة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة لكن النبى صلى الله عليه وسلم أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل إلا من قاتله ولم يسب لهم ذرية ولا غنم لهم مالا ، ولهذا سموا الطلقاء وأحمد وغيره من السلف إنما عللوا ذلك بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين كما قال تعالى (والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) .

وهذه أى العلة التى اختصت بها مكة دون سائر الأمصار فإن الله أوجب حجها على جميع الناس وشرع اعتيادها دائماً فجعلها مشتركة بين جميع عباده كما قال (سواء العاكف فيه والباد) ولهذا كانت منى وغيرها من المشاعر من سبق إلى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه كالمساجد ومكة نفسها من سبق إلى مكان فهو أحق به والإنسان أحق بمساكنه مادام محتاجا إليها وما استغنى عنه من المنافع فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج وغيرهم ، ولهذا كانت الأقوال

فى إجارة دورها وبيع رباعها ثلاثة قيل لا يجوز لا هذا ولا هذا وقيل يجوز الأمران ، والصحيح أنه يجوز بيع رباعها ولا يجوز إجارتها .

وعلى هذا تدل الآثار المنقولة فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضى الله عنهم فإن الصحابة كانوا يتبايعون دورها والدور تورث وتوهب وإذا كانت تورث وتوهب جاز أن تباع بخلاف الوقف فإنه لا يباع ولا يورث ولا يوهب ، وكذلك أم الولد من لم يجوز بيعها لا يجوز هبتها ولا أن تورث ، وأما إجارتها فقد كانت تدعى السوائب على عهد النبى صلى الله عليه وسلم . وأبى بكر . وعمر من احتاج سكن ومن استغنى أسكن لأن المسلمين كلهم محتاجون إلى المنافع فصارت كمنافع الأسواق والمساجد والطرقات التى يحتاج إليها المسلمون فمن سبق إلى شىء منها فهو أحق به وما استغنى عنه أخذه غيره بلا عرض .

وكذلك المباحات التى يشترك فيها الناس ويكون المشترى لها استفاد بذلك أنه أحق من غيره مادام محتاجا وإذا باعها الإنسان قطع اختصاصه بها وتوريثه إياها وغير ذلك من تصرفاته ، وهذا له أن لا يبذله إلا بعوض والنبى صلى الله عليه وسلم من على أهل مكة فإن الأسير يجوز المن عليه للمصلحة وأعطاهم مع ذلك ذراريهم وأموالهم كما من على هوازن لما جاؤا مسلمين بإحدى الطائفتين السبى أو المال فاختاروا السبى فأعطاهم السبى وكان ذلك بعد القسمة ، فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم وكان قد قسم المال فلم يرده عليهم ، وقريش لم تحاربه كما حاربته هوازن وهو إنما من على من لم يقاتله منهم كما قال : « من أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

فلما كف جمهورهم عن قتاله وعرف أنهم مسلمون أطلقهم ولم يغنم أموالهم ولا حريمهم ولم يضرب الرق لا عليهم ولا على أولادهم بل سماهم الطلقاء من قريش بخلاف ثقيف فإنهم سموا العتقاء فإنه أعتق أولادهم بعد الاسترقاق

والقسمة وكان فى هذا مادل على أن الإمام يفعل بالأموال والرجال والعقار والمنقول ما هو أصلح فإن النبى صلى الله عليه وسلم فتح خيبر فقسمها بين المسلمين وسبى بعض نسائها وأقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك فلم يسترقهم ومكة فتحها عنوة ولم يقسمها لأجل المصلحة .

وقد تنازع العلماء فى الأرض إذا فتحت عنوة هل يجب قسمها كخيبر لأنها مغنم أو تصير فيئا كما دلت عليه سورة الحشر وليست الأرض من المغنم أو يخير الإمام فيما بين هذا وهذا على ثلاثة أقوال،وأكثر العلماء على التخيير وهو الصحيح وهو مذهب أبى حنيفه وأحمد فى المشهور عنه وغيرهما ، ولو فتح الإمام بلدا وغلب على ظنه أن أهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم بأهل مكة فإنهم أسلموا كلهم بلا خلاف بخلاف أهل خيبر فإنه لم يسلم منهم أحد فأولئك قسم أرضهم لأنهم كانوا كفاراً مصرين على الكفر ، وهؤلاء تركها لهم لأنهم كلهم صاروا مسلمين .

والمقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هى العليا وأن يكون الدين كله لله وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم ليتألفهم على الإسلام فكيف لايتألفهم بإبقاء ديارهم وأموالهم وهم لما حضروا معه حنينا أعطاهم من غنائم حنين ما تألفهم به حتى عتب بعض الأنصار كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك،أن ناسا من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم .

قال أنس : فحدث ذلك النبى صلى الله عليه وسلم من قولهم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما حديث بلغنى عنكم فقال له فقهاء الأنصار

أما ذوو رأينا يارسول الله فلم يقولوا شيئاً وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به قالوا بلى يارسول الله قد رضينا قال فإنكم ستجدون بعدى أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإنى على الحوض قالوا سنصبر ، وفى روايه : لو سلك الناس واديا أو شعباً وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبهم الناس دثار والأنصار شعار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار وحدثهم حتى بكوا رضى الله تعالى عنهم .

فهذا كله بذل وعطاء لأجل إسلام الناس وهو المقصود بالجهاد ومن قال أن الإمام يجب عليه قسمة العقار والمنقول مطلقا فقوله فى غاية الضعف مخالف لكتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر وليس معه حجة واحدة توجب ذلك فإن قسمة النبى صلى الله عليه وآله وسلم خيبر تدل على جواز مافعل لا تدل على وجوبه إذ الفعل لا يدل بنفسه على الوجوب وهو لم يقسم مكة ولا شك أنها فتحت عنوة وهذا يعلمه ضرورة من تدبر الأحاديث .

وكذلك المنقول من قال أنه يجب قسمه كله بالتسوية بين الغانمين فى كل غزاة فقوله ضعيف بل يجوز فيه التفضيل للمصلحة كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفضل فى كثير من المغازى والمؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم من غنائم خيبر فيما أعطاهم قولان أحدهما أنه من الخمس والثانى أنه من أصل الغنيمة وهذا أظهر فإن الذى أعطاهم إياه هو شىء كثير لايحتمله الخمس ومن قال العطاء كان من خمس الخمس فلم يدر كيف وقع الأمر ولم يقل هذا أحد من المتقدمين وهذا مع قوله ليس لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم هذا لأن المؤلفة قلوبهم كانوا من العسكر ففضلهم

فى العطاء للمصلحة كما كان يفضلهم فيما يقسمه من الفىء للمصلحة .

وهذا دليل على أن الغنيمة للإمام أن يقسمها باجتهاده كما يقسم الفىء باجتهاده إذا كان إمام عدل قسمها بعلم وعدل ليس قسمتها بين الغانمين كقسمة الميراث بين الورثة وقسمة الصدقات فى الأصناف الثمانية ولهذا قال فى الصدقات أن الله لم يرض فيها بقسمة نبى ولا غيره ولكن جعلها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأصناف أعطيتك فعلم أن ماأفاء الله من الكفار بخلاف ذلك ، وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر لأهل السفينة الذين قدموا مع جعفر ولم يقسم لأحد غاب عنها غيرهم وقسم من غنائم بدر لطلحة والزبير ولعثمان وكان قد أقام بالمدينة وهؤلاء الذين كانوا يريدون القتال وكانوا مشغولين ببعض مصالح المسلمين الذين هم فيها فى جهاده .

وأيضا أهل السفينة وطلحة والزبير وعثمان لم يكونوا كغيرهم والقتال لم يكن لأجل الغنيمة فليست الغنيمة كمباح اشترك فيه ناس مثل الاحتشاش والاحتطاب والاصطياد فإن ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال بخلاف الغنيمة بل من قاتل فيها لأجل المال لم يكن مجاهدا فى سبيل الله ولهذا لم تبح الغنائم لمن قبلنا وأبيحت لنا معونة على مصلحة الدين .

فالغنائم أبيحت لمصلحة الدين وأهله فمن كان قد نفع المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم جعل منهم وإن لم يحضر ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم المسلمون يد واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ويرد متسريهم على قاعدهم فإن المتسرى إنما تسرى بقوة القاعد فالمعاونون للمجاهدين من المجاهدين .

ولبسط هذه الأمور موضع آخر ، والمقصود هنا ذكر متابعة النبى صلى الله عليه وسلم وهو أنه يعتبر فيه متابعته فى قصده فإذا قصد مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك العبادة سنة وأما إذا صلى فيه اتفاقا من غير قصد لم يكن

قصده للعبادة سنة ولهذا لم يكن جمهور الصحابة يقصدون مشابهته في ذلك وابن عمر رضى الله عنهما مع أنه كان يحب مشابهته فى ظاهر الفعل لم يكن يقصد الصلاة إلا فى الموضع الذى صلى فيه لا فى كل موضع نزل به .

ولهذا رخص أحمد بن حنبل فى ذلك إذا كان شيئاً يسيراً كما فعله ابن عمر ونهى عنه رضى الله عنه إذا كثر لأنه يفضى إلى المفسدة وهى اتخاذ آثار الأنبياء مساجد وهى التى تسمى المشاهد وما أحدث فى الإسلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار فهى من البدع المحدثة فى الإسلام من فعل من لم يعرف شريعة الإسلام وما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من كمال التوحيد وإخلاص الدين لله وسد أبواب الشرك التى يفتحها الشيطان لبنى آدم .

ولهذا يوجد من كان أبعد عن التوحيد وإخلاص الدين لله ومعرفة دين الإسلام هم أكثرهم تعظيما لمواضع الشرك فالعارفون بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديثه أولى بالتوحيد وإخلاص الدين لله وأهل الجهل بذلك أقرب إلى الشرك والبدع ولهذا يوجد ذلك فى الرافضة أكثر مما يوجد فى غيرهم لأنهم أجهل من غيرهم وأكثر شركا وبدعا ولهذا يعظمون المشاهد أعظم من غيرهم ويخربون المساجد أكثر من غيرهم فالمساجد لا يصلون فيها جمعة ولا جماعة ولا يصلون فيها إن صلوا إلا أفذاذا وأما المشاهد فيعظمونها أكثر من المساجد حتى قد يرون أن زيارتها أولى من حج بيت الله الحرام ويسمونها الحج الأكبر .

وصنف ابن المفيد منهم كتاباً سماه مناسك حج المشاهد وذكر فيه من الأكاذيب والأقوال مالا يوجد فى سائر الطوائف وإن كان فى غيرهم أيضاً نوع من الشرك والكذب والبدع لكن هو فيهم أكثر وكلما كان الرجل أتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له فى الدين وإذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك فإذا كثر بعده عنه ظهر فيه

من الشرك والبدع مالا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول والله إنما أمر فى كتابه وسنة رسوله بالعبادة فى المساجد والعبادة فيها أى عمارتها .

قال تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) ولم يقل مشاهد الله وقال تعالى (قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) ولم يقل عند كل مشهد فإن أهل المشاهد ليس فيهم إخلاص الدين لله بل فيهم نوع من الشرك ، وقال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة) الآيات .

وفى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ثم قرأ هذه الآية فإن المراد بعمارتها عمارتها بالعبادة فيها كالصلاة والاعتكاف يقال مدينة عامرة إذا كانت مسكونة ومدينة خراب إذا لم يكن فيها ساكن ، ومنه قوله تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لايستوون عند الله) .

وأما نفس بناء المساجد فيجوز أن يبنيها البر والفاجر والمسلم والكافر وذلك يسمى بناء كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة » فبين الله تعالى أن المشركين ما كان لهم عمارة مساجد الله مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر وبين إنما يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله وهـــذه صفة أهل التوحيد وإخلاص الدين لله الذين لايخشون إلا الله ولايرجون سواه ولا يستعينون إلا به ولا يدعون إلا إياه وعمار المشاهد يخافون غير الله ويرجون غيره ويدعون غيره وهو سبحانه لم يقل إنما يعمر مشاهد الله فإن المشاهد ليست بيوت الله إنما هى بيوت الشرك .

ولهذا ليس فى القرآن آية فيها مدح المشاهد ولا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك حديث وإنما ذكره الله عمن كان قبلنا أنهم بنوا مسجدا على قبر أهل الكهف وهؤلاء من الذين نهانا الله أن نتشبه بهم حيث قال صلى الله عليه وسلم : فى الحديث الصحيح أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك .

ففى هذا الحديث ذم أهل المشاهد وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة كما قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر مافعلوا وقال أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » ثم أهل المشاهد كثير من مشاهدهم او أكثرها كذب فإن الشرك مقرون بالكذب فى كتاب الله كثيراً قال تعالى : (واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » قالها ثلاثا وذلك كالمشهد الذى بنى بالقاهرة على رأس الحسين وهو كذب باتفاق أهل العلم ورأس الحسين لم يحمل إلى هناك أصلا وأصله فى عسقلان، وقد قيل أنه كان رأس راهب ورأس الحسين لم يكن بعسقلان وإنما أحدث هذا فى أواخر دولة الملاحدة بنى عبيد وكذلك مشهد على رضى الله عنه إنما حدث فى دولة بنى بويه .

وقال محمد بن عبد الله مطين الحافظ وغيره إنما هو قبر المغيرة بن شعبة رضى الله عنه وعلى رضى الله عنه إنما دفن فى قصر الإمارة وبالكوفة ودفن معاوية بقصر الإمارة بدمشق ودفن عمرو بن العاص بقصر الإمارة بمصر خوفا عليهم إذا دفنوا فى المقابر البارزة أن ينبشهم الخوارج المارقون فإن الخوارج كانوا تعاهدوا على قتل الثلاثة فقتل ابن ماجم عليا وجرح صاحبه معاوية وعمرو كان استخلف رجلا اسمه خارجة فقتله الخارجى وقال أردت عمرا وأراد الله خارجة فسارت مثلا .

فالمقصود أن هذا المشهد إنما أحدث فى دولة الملاحدة دولة بنى عبيد وكان فيهم من الجهل والضلال ومعاضدة الملاحدة وأهل البدع من المعتزلة والرافضة أمور كثيرة ولهذا كان فى زمنهم قد تضعضع الإسلام تضعضعاً كثيراً ودخلت النصارى إلى الشام فإن بنى عبيد ملاحدة منافقون ليس لهم غرض لا فى الله ولا فى رسوله ولا فى الجهاد فى سبيل الله بل فى الكفر والشرك ومعاداة الإسلام بحسب الإمكان وأتباعهم كلهم أهل بدع وضلال فاستولت النصارى فى دولتهم على أكثر الشام ثم قيض الله من ملوك السنة مثل نور الدين وصلاح الدين وأخوته وأتباعهم ففتحوا بلاد الإسلام وجاهدوا الكفار والمنافقين.

ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ والشيطان يقارنها وإن كان المسلم المصلى لا يقصد السجود لها لكن سد الذريعة لئلا يتشبه بالمشركين فى بعض الأمور التى يختصون بها فيفضى إلى ما هو شرك ولهذا نهى عن تحرى الصلاة فى هذين الوقتين ، هذا لفظ ابن عمر الذى فى الصحيحين فقصد الصلاة فيها منهى عنه .

وأما إذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله مثل تحية المسجد وصلاة الكسوف وسجود التلاوة وركعتى الطواف وإعادة الصلاة مع إمام الحى ونحو ذلك فهذه فيها نزاع مشهور بين العلماء والأظهر جواز ذلك واستحبابه فإنه خير لا شر فيه وهو يفوت إذا ترك وإنما نهى عن قصد الصلاة وتحريها فى ذلك الوقت لما فيه من مشابهته الكفار بقصد السجود ذلك الوقت فما لا سبب له قد قصد فعله فى ذلك الوقت وإن لم يقصد الوقت بخلاف ذى السبب فإنه فعل لأجل السبب فلا تأثير فيه للوقت بحال .

ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى المقبرة عموماً فقال الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام رواه أهل السنن وقد روى مسنداً

ومرسلا وقد صحح الحفاظ أنه مسند فإن الحمام مأوى الشياطين والمقابر نهى عنها لما فيه من التشبه بالمتخذين القبور مساجد وإن كان المصلى قد لا يقصد الصلاة لأجل فضيلة تلك البقعة بل اتفق لكن فيه تشبه بمن يقصد ذلك فنهى عنه كما ينهى عن الصلاة المطلقة وقت الطلوع والغروب وإن لم يقصد فضيلة ذلك الوقت لما فيه من التشبه بمن يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون فنهيه عن الصلاة فى هذا الزمان كنهيه عن الصلاة فى ذلك المكان فلما كان الشرك الذى أضل أكثر بنى آدم أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على صورهم فإن المشركين قد اعتادوا آلهة يلدون ويولدون ويرثون ويورثون ويكونون من شىء من الأشياء فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن إلهه الذى يعبده من أى شىء هو أمن كذا أم من كذا وممن ورث الدنيا ولمن يورثها ؟ فقال تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

وفى حديث أبى بن كعب لأنه ليس احد يولد إلا يموت ولا أحد يرث إلا يورث يقول كل من عبد من دون الله وقد ولد مثل المسيح والعزير وغيرهما من الصالحين وتماثيلهم ومثل الفراعنة المدعين الآلهية فهذا مولود يموت وهو وإن كان ورث من غيره ماهو فيه فإذا مات ورثه غيره والله سبحانه حى لا يموت ولا يورث سبحانه وتعالى .

فهرست

كتاب تفسير سورة الإخلاص

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة